

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة الكهف

دكتور
محمد شبيب طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

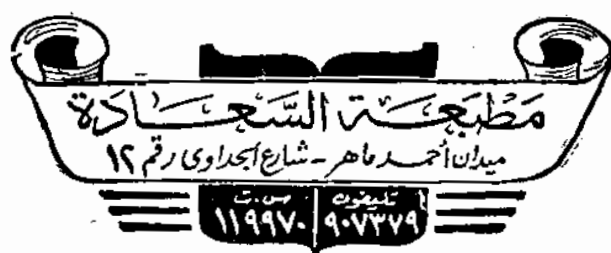
الجزء الخامس عشر

الطبعة الثالثة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

حقوق الطبع محفوظة للدة لف

Made searchable using ScribeTools.com





مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فقد كان من فضل الله - عز وجل - علي ، أن أعارني جامعة الأزهر إلى قسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

وقد امتدت هذه الإعارة لمدة أربع سنوات ، من سنة ١٤٠٠ إلى ١٤٠٤ هـ ١٩٨٠ - ١٩٨٤ م .

وقد وفقني الله - تعالى - خلال هذه المدة ، أن أكتب - وأنا في الجوار الطيب - تفسيراً محرراً ونافعاً - إن شاء الله - لسور : يونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وإبراهيم ، والحجر ، والزحل ، والإسراء . . .

وهأنذا - وأنا في الأشهر الأخيرة من الإعارة - انتهى من كتابة تفسير سورة الكهف .

أسأل الله - تعالى - أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه ، ونافعاً لعباده ، وأن يعينني على خدمة كتابه الكريم ، وعلى السير في تفسيره حتى النهاية ، وأن يزيل من طريقي كل عقبة تمنعني من ذلك .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المدينة المنورة - مساء الخميس ١٨ من رجب سنة ١٤٠٤ هـ .

١٩ من إبريل سنة ١٩٨٤ م

د / محمد سعيد طنطاوي

مفتي جمهورية مصر العربية

تمهيد

سورة الكهف هي السورة الثامنة عشرة في ترتيب سور المصحف ،
فقد سبقتها في الترتيب سور : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ... الخ .
أما ترتيبها في النزول ، فهي السورة الثامنة والستون ، فقد ذكر قبلها
صاحب الاتقان سبعا وستين سورة ، كما ذكر أن نزولها كان بعد سورة
الفاشية (١) .

ومما ذكره صاحب الاتقان يترجح لدينا ، أن سورة الكهف من أواخر
السور المكية التي نزلت على النبي - صلى الله عليه وسلم - قبل الهجرة ، إذ من
المعروف عند العلماء أن السور المكية زهاء ثنتين وثمانين سورة .
قال الألوسي : سورة الكهف ، ويقال لها سورة أصحاب الكهف ...
وهي مكية كلها في المشهور ، وإختاره الداني ... وعددها بعضهم من السور
التي نزلت جملة واحدة .

وقيل مكية إلا قوله - تعالى - : واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم
بالغداة والعشي ... الآية .

وقيل هي مكية إلا أولها إلى قوله - تعالى - : جزأ ، وقيل : مكية إلا
قوله - تعالى - : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس
نزلا ... إلى آخر السورة .

وهي مائة وإحدى عشرة آية عند البصريين ، ومائة وعشرة آيات عند
الكوفيين ... (٢) .

والذي تطمئن إليه النفس أن سورة الكهف كلها مكية ، وقد ذكر ذلك دون
أن يستثنى منها شيئا الإمام ابن كثير ، والزمخشري ، وأبو حيان ، وغيرهم ،

(١) الاتقان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٧ لسيوطي .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٥ ص ١٩٩ .

وفضلاً عن ذلك فالذين قالوا بأن فيها آيات مدنية ، لم يأتوا بما يدل على صحة قولهم ، كما سيبين لنا عند تفسير الآيات التي قيل بأنها مدنية .

٢ - وقد صدر الامام ابن كثير تفسيره لهذه السورة ، بذكر الأحاديث التي وردت في فضلها فقال مالم يخصه : ذكر ماورد في فضلها ، والعشر الآيات من أولها وآخرها ، وأنها عصمة من الدجال .

قال الامام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا همام بن يحيى ، عن قتادة ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن معدان بن أبي طلحة ، عن أبي الدرداء عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : من حفظ عشر آيات من سورة الكهف ، عصم من الدجال .

وفي رواية عن أبي الدرداء ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : من قرأ للعشر الاواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال .

وأخرج الحاكم عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة ، أضاء له النور ما بينه وبين الجمعتين (١) .

٣ - عرض لإجمالي سورة الكهف :

(١) عندما نقرأ سورة الكهف ، نراها في مطلعها تفتتح بالثناء على الله - تعالى - وبالتنويه بشأن النبي - صلى الله عليه وسلم - وبالقرآن الذي نزل عليه ثم تنذر الذين نسبوا إلى الله - عز وجل - ما لا يليق به ، وتصممهم بأفبح ألوان الكذب ، ثم تنهى النبي - صلى الله عليه وسلم - عن التأسف عليهم ، بسبب إصرارهم على كفرهم .

قال - تعالى - : الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً فيما لينذر بأساً شديداً من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً . ما كثرين فيه أبداً . وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ما لهم به من علم ولا لآبائهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٣٠ طبعة دار الشعب .

ثم سافت السورة بعد ذلك فيما يقرب من عشرين آية قصة أصحاب الكهف، فحككت أقوالهم عندما التجأوا إلى الكهف، وعندما استقروا فيه واتخذوه مأوى لهم، كما حككت جانباً من رعاية الله، تعالى، لهم، ورحمته بهم . . . ثم صورت أحوالهم وهم رقود، وذكرت تساؤلهم فيما بينهم بعد أن بعثهم الله - تعالى - من رقادم الطويل، وإرسالهم أحدهم إلى المدينة لإحضار بعض الأطعمة وإطلاع الناس عليهم . وتنازعهم في أمرهم، ونهى الله - تعالى - عن الجدل في شأنهم . كما ذكرت المدة متى لبثوها في كهفهم .

قال - تعالى - ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وإزدادوا تسعاً . قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض . أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولي، ولا يشرك في حكمه أحداً .

(ح) ثم أمرت السورة الكريمة النبي - صلى الله عليه وسلم - برعاية الفقراء من أصحابه، ومدحتهم بأنهم يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه . . . كما أمرته بأن يجهر بكلمة الحق، فمن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر، فإن الله - تعالى - قد أعد لكل فريق ما يستحقه من ثواب أو عقاب .

قال - تعالى - وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا ننزع أجر من أحسن عملاً .

(د) ثم ضربت السورة الكريمة مثلاً للشاكرين والجاهدين، وصورت بأسلوب بليغ مؤثر تلك المحاورة الرائعة التي دات بين صاحب الجنتين الغني المفرور، وبين صديقه الفقير المؤمن الشكور، وختمت هذه المحاورة ببيان العقوبة السيئة لهذا الجاهل الجاحد .

استمع إلى القرآن وهو يبين ذلك بأسلوبه فيقول، وأحيط بشمره، فأصبح يقطب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها، ويقول : يا ليتني لم أشرك بربي أحداً ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً .

(هـ) ثم أتت السورة هذا المثل للرجلين ، بمثال آخر لزوال الحياة الدنيا وزينتها ، وبيان أحوال الناس يوم القيامة ، وأحوال المجرمين عندما يرون صحائف أعمالهم وقد خلت من كل خير .

قال - تعالى - : وأضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح . وكان الله على كل شيء مقبلا . المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا . ويوم نسير الجبال ونرى الأرض بارزة وحشرا فام فلم تغادر منهم أحدا .

(و) وبعد أن ذكرت السورة الكريمة عرافة قصة آدم وإبليس ، وبينت أن هذا القرآن قد صرف الله فيه للناس من كل مثل ، وحددت وظيفة المرسلين عليهم الصلاة والسلام .

بعد كل ذلك ساق في أكثر من عشرين آية قصة موسى مع الخضر - عليهما السلام - وحكت ما دار بينهما من محاورات . . . انتهت بأن قال الخضر لموسى : وما فعلته عن أمري ، ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا .

(ز) ثم جاءت بعد قصة موسى والخضر ، عليهما السلام ، قصة ذى القرنين في ست عشرة آية . بين الله ، تعالى ، فيها جانباً من النعم التي أنعم بها على ذى القرنين ، ومن الأعمال العظيمة التي مكنته - سبحانه - من القيام بها .

قال - تعالى - : حتى إذا باغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولا . قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً . قال ما مكنى فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما .

(ح) ثم ختمت السورة الكريمة ببيان ما أعدّه - سبحانه - للكافرين من سوء العذاب وما أعدّه للمؤمنين من جزيل الثواب ، وبيان مظاهر قدرته ، - عز وجل - التي توجب على كل عاقل أن يخلص له العبادة والطاعة .

قال - تعالى - : قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا . ذلك جزاؤهم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا . خالدون فيها لا يبغون عنها حولا . قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ، ولو جئنا بماء مددا . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي إنما إلهكم إله واحد . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا .

٤ - وبعد : فهذا عرض إجمالي لأهم الموضوعات التي اشتملت عليها سورة الكهف ، ومن هذا العرض نرى :

(١) أن القصص قد اشتمل على جانب كبير من آياتها ، ففي أولها نرى قصة أصحاب الكهف ، وبعدها قصة الرجلين اللذين جعل الله لأحدهما جنتين من أعناب . ثم بعد ذلك جاء طرف من قصة آدم وإبليس ، ثم جاءت قصة موسى والخضر - عليهما السلام - ثم ختمت بقصة ذى القرنين :

وقد وردت هذه القصص في أكثر من سبعين آية ، من سورة الكهف المشتملة على عشر آيات بعد المائة .

(ب) اهتمت السورة الكريمة بإقامه الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عنه ، وعلى إثبات أن هذا القرآن من عنده - تعالى .

نرى ذلك في أمثال قوله - تعالى - : الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . فيما ليخذر بأسا شديدا من لدنه ، .

وقوله - تعالى - : قل إنما بشر مثلكم يوحى إلي إنما إلهكم إله واحد . وفي غير ذلك من الآيات التي حكمت لنا تلك القصص المتعددة .

(ج) برز في السورة عنصر الموارنة والمقارنة بين حسن عاقبة الاخيار
وسوء عاقبة الاشرار ، ترى ذلك في قصة اصحاب الكهف وفي قصة الرجلين
وفي قصة ذي القرنين . . .

وفي الآيات التي ذكرت الكافرين وسوء مصيرهم ، ثم أعقبت ذلك بذكر
المؤمنين وحسن مصيرهم كما برز فيها عنصر التسليمية للرسول - صلى الله عليه وسلم -
والتهويل من شأن أعدائه ، فلملك باخع تنسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا
الحديث أسفا ،

كما برز فيها التصريح المؤثر لأهل - وال يوم القيامة كما في قوله - تعالى - :
« ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم تغادر منهم أحدا
وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة . . . »

والخلاصة : أن سورة الكهف قد - ساق - بأسلوبها البلاغ الذي يغلب عليه
الدعوة الصحيحة ، وإلى السلوك القويم . وإلى الخلق الكريم ، وإلى التفكير
السليم الذي يهدي إلى الرشd ، وإلى كل ما يوصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

التفسير

قال - تعالى - :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١)
فَيَمَّا يُوذِرُ بِأَسْمَاءٍ شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ ، وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَا كَثِيرٌ فِيهِ أُبْدَاء (٣) وَيُوذِرَ الَّذِينَ
قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَلَا لِآبَائِهِمْ ، كَبُرَتْ كَلِمَةً
تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَمَّا كَبَخِيعُ نَفْسِكَ
عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى
الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ، لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ
مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨) » .

سورة الكهف هي إحدى السور الخمس ، التي افتتحت بتقرير الحقيقة
الأولى في كل دين ، وهي أن المستحق للحمد المطلق ، والثناء التام هو الله
رب العالمين .

والسور الأربع الأخرى التي افتتحت بقوله - تعالى - : « الحمد لله ، هي :
الفاتحة ، والأنعام ، وسبا ، وفاطر .

وقد بينا عند تفسيرنا لسورة الأنعام ، أن هذه السور وإن كانت قد
اشتركت في هذا الافتتاح ، إلا أن لكل سورة طريقتهما في بيان الأسباب

التي من شأنها أن تقنع الناس ، بأن المستحق للحمد المطلق هو الله - تعالى - وحده (١) .

والحمد : هو الثناء باللسان على الجليل الصادر عن إختيار من نعمة أو غيرها .
وأل في الحمد ، للاستغراق . بمعنى أن المستحق لجميع المحامد ، ولكافة ألوان الثناء ، هو الله - تعالى - .

ولأنما كان الحمد مقصوراً في الحقيقة على الله - تعالى - ، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء فهو صادر عنه ، ومرجعه إليه ؛ إذ هو الخالق لكل شيء ، وما يقدم إلى بعض الناس من حمد جزاء إحسانهم ، فهو في الحقيقة حمد لله ، لأنه - سبحانه - هو الذي وفقهم لذلك ، وأعانهم عليه .

وقد بين بعض المفسرين الحكمة في إفتتاح بعض السور بلفظ الحمد دون المدح أو الشكر فقال ما ملخصه : د اعلم أن المدح أعم من الحمد ، وأن الحمد أعم من الشكر ، أما بيان أن المدح أعم من الحمد ، فلأن المدح يحصل للعاقل وغير العاقل ، فقد يمدح الرجل لعقله ، ويمدح اللؤلؤ لحسن شكله .

وأما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار ، على ما يصدر منه من الإناعام ، فثبت أن المدح أعم من الحمد .

وأما بيان أن الحمد أعم من الشكر ، فلأن الحمد عبارة عن تعظيم الفاعل لأجل ما صدر عنه من الأنعام ، سواء أكان ذلك الأنعام واصلًا إليك أو إلى غيرك ، وأما الشكر فهو عبارة عن تعظيمه لأجل إناعام وصل إليك وحدك ، فثبت أن الحمد أعم من الشكر .

وكان قوله ، الحمد لله ، تصريحا بأن المؤثر في وجود العالم هو الفاعل المختار ، الذي وصلت نعمه إلى جميع خلقهم ، لا إلى بعضهم ... (٢)

(١) راجع تفسيرنا لسورة الأنعام ص ٣٩ .

(٢) راجع تفسير الفخر الرازي لأهل سورة الأنعام ص ٤ ص ٣ . طبعة المطبعة الشرقية - سنة ١٣٢٤ هـ .

وقوله : « الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قويا . . . »
 بيان للأسباب التى توجب على الناس أن يجعلوا حمدهم وعبادتهم لله - تعالى -
 وحده ، إذ الوصف بالموصول ، يشعر بعلمية ما فى حيز الصلة لما قبله .
 والعوج - بكسر العين - أكثر ما يكون إستعمالا فى المعانى ، تقول ، هذا
 كلام لا عوج فيه . أى : لا ميل فيه .

أما العوج - بفتح العين - فأكثر ما يكون إستعمالا فى الأعيان تقول :
 هذا حائط فيه عوج .

وقوله : « قويا ، أى : مستقيما معتدلا لا ميل فيه ولا زيغ وهما - أى :
 عوجا وقويا - حالان من الكتاب ويصح أن يكون قوله « قويا ، منصوبا بفعل
 محذوف أى : جعله قويا .

والمعنى : الحمد الكامل ، والثناء الدائم ، لله - تعالى - وحده . الذى أنزل
 على عبده محمد - صلى الله عليه وسلم - القرآن الكريم ، ولم يجعل فيه شيئا من
 العوج أو الاختلاف أو التناقض ، لا فى لفظه ، ولا فى معناه ، وإنما جعله
 فى أسنى درجات الاستقامة والإحكام .

وإنما أمر الله - تعالى - الناس بأن يحمده لإنزال الكتاب على عبده محمد
 - صلى الله عليه وسلم - لأن فى هذا الكتاب من الهدايات ما يخرجهم من
 الظلمات إلى النور ، وما يسعدهم فى دينهم ودنياهم وآخرتهم .

وفى التعبير عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالعبد ، مضافا إلى ضميره
 - تعالى - ، تعظيم وتشريف له - صلى الله عليه وسلم - وإشعار بأنه مهماسمت
 منزلة ، وعلت مكانته فهو عبد الله - تعالى - ، وأن الذين عبدوا أو أشركوا
 مع الله - تعالى - بعض مخلوقاته ، قد ضلوا ضلالا بعيدا .

والتعبير عن القرآن الكريم بالكتاب ، إشارة إلى كماله وشهرته ، أى :
 أنزل - سبحانه - على عبده محمد - صلى الله عليه وسلم - الكتاب الكامل فى

بابه ، الغنى عن التعريف ، الحقيق يا اختصاص هذا الاسم به ، المعروف به - هذا الاسم من بين سائر الكتب .

والمراد به إما جميع القرآن الكريم سواء منه ما نزل فعلا وما هو مترقب النزول ، وإما ما نزل منه فقط حتى نزول هذه الآية فيه - يكون من باب التعبير عن البعض بالكل تحقيقا للنزول للجميع .

وجاء لفظ «عوجا» بصيغة التثنية ، ليشمل النهى جميع أنواع الميل والعوج ، إذ التذكير في سياق النهى أعم . أى : لم يجعل له - سبحانه - أى شيء من العوج .

وقوله : «قيما» تأكيد في المعنى لقوله - سبحانه - : «لم يجعل له عوجا» لأنه قد يكون الشيء مستقيما في الظاهر ، إلا أنه لا يخلو عن أعوجاج في حقيقة الأمر ، ولذا جمع - سبحانه - بين نفي العوج ، وإثبات الاستقامة .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : ما فائدة الجمع بين نفي العوج وإثبات الاستقامة ، وفي أحدهما غنى عن الآخر ؟

قلت : فائدته التأكيد ، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ، ولا يخلو من أدنى عرج عند السبر والتصفح . وقيل : قيما على سائر الكتب ، مصدقا لها ، شاهدا بصحتها . وقيل : قيما بمصالح العباد وما لا بد لهم منه من «شرايع»^(١) .

وشبهه بهذه الآية في مدح القرآن الكريم قوله - تعالى - : «كتاب أنزلناه إليك لتخرج الفاس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد»^(٢) .

وقوله - سبحانه - : «... إن القرآن يهدي للتي هي أقوم...»^(٣) .

(١) تفسير الكشف ج ٣ ص ٢٧٢ .

(٢) سورة إبراهيم الآية ٢ .

(٣) سورة الإسراء الآية ٩ .

وقوله - عز وجل : « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون . قرأنا عرييا غير ذي عوج لعلهم يتقون » (١) .
وقوله - تعالى - : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (٢) .

ثم شرع - سبحانه - في بيان وظيفة القرآن الكريم ، بعد وصفه بالاستقامة والاحكام ، فقال : « لينذر بأسا شديدا من لدنه . . . » .

والإنذار : الاعلام المقترن بتخويف وتهديد ، فكل إنذار إعلام ، وليس كل إعلام إنذارا .

واللام في قوله « لينذر » متعلقة بأنزل ، والبأس : العذاب ، وهو المفعول الثاني للفعل ينذر ، ومفعول الأول محذوف .

والمعنى : أنزل - سبحانه - على عبده الكتاب حالة كونه لم يجعل له عوجا بل جعله مستقيما ، لينذر الذير كفروا عذابا شديدا ، صادرا من عنده - تعالى - :

والتعبير بقوله « من لدنه » يشعر بأنه عذاب ليس له دافع ، لأنه من عند الله - تعالى - القاهر فوق عباده .

أما وظيفة القرآن بالنسبة للمؤمنين ، فقد بينها - سبحانه - بعد ذلك في قوله : « ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات . أن لهم أجرا حسنا . ما كثين فيه أبدا » .

أي : أنزل الله هذا القرآن ، ليخوف به الكافرين من عذابه ، وليبشر به المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحات . أن لهم من خالقهم - عز وجل - أجرا حسنا هو الجنة ونعيمها ، ما كثين فيه أبدا ، أي : مقيم فيه إقامة باقية

(١) سورة الزمر الآية ٢٧ ، ٢٦ .

(٢) سورة النمل الآية ٦١ .

دائمة لا إنتهاء لها . فالضمير في قوله « فيه » ، يعود إلى الأجر الذي يراد به الجنة .

قال - تعالى - : فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنبذر به قوما لدا ، (١) .

ثم خص - سبحانه - بالإنذار فرقة من الكافرين ، نسبوا إلى الله - تعالى - ما هو منزه عنه ، فقال : « وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا . ما لهم به من علم ولا لآبائهم : كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا . »

فقوله - سبحانه - هنا : « وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا . » معطوف على قوله قيل ذلك « لينذر بأسا شديدا من لدنه » ، من باب عطف الخاص على العام لأن الإنذار في الآية الأولى يشمل جميع الكافرين ومن بينهم الذين نسبوا إلى الله - تعالى - الولد .

والمراد بهم اليهود والنصارى ، وبعض مشركي العرب ، قال - تعالى - : وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، (٢) .

وقال - سبحانه - : « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتمون » (٣) .

قال الألوسي : وترك - سبحانه - إجراء الموصول على الموصوف هنا ، حيث لم يقل وينذر الكافرين الذين قالوا ... كما قال في شأن المؤمنين : « ويبشر المؤمنين الذين ... للإيمان بكفاية ما في حيز الصلة في الكفر على أقبح الوجوه . » وإينار صيغة الماضي في الصلة ، للدلالة ، على تحقيق صدور تلك الكلمة القبيحة عنهم فيما سبق ، (٤) .

(١) سورة مريم الآية ٩٧ .

(٢) سورة التوبة الآية ٣٠ .

(٣) - سورة النحل الآية ٥٧ .

(٤) تفسير الألوسي ج ١ ص ٢٠٣ .

وقوله - تعالى - : د ما لهم به من علم ولا لا بانهم ، توبيخ لهم على تفورهم
بكلام يدل على إبالغهم فى الجهل واليهتان .

أى : ما نسبوه إلى الله - تعالى - من الولد ، ليس لهم بهذه النسبة علم ،
وكذلك ليس لا بانهم بهذه النسبة علم ، لأن ذلك مستحيل له - تعالى - ، كما
قال - عز وجل - : د وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات
بغير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون .

بديع السموات والأرض ، أنى يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة ،
وخلق كل شىء ، وهو بكل شىء عليم ، (١) .

و د من ، فى قوله : ما لهم به من علم ، من بدء لتأكيد النفى ، والجملة مستأنفة ،
و د لهم ، خبر مقدم ، و د من علم ، مبتدأ مؤخر ، وقوله د ولا بانهم ،
معطوف على الخبر .

أى : ما لهم بذلك شىء من العلم أصلاً ، وكذلك الحال بالنسبة لا بانهم .
فالجملة السكرية تنفى ما زعموه نفياً يشملهم ويشمل الذين سبقوهم وقالوا
قولهم .

قال السكرى : فإن قيل : إلتخاذ الولد محال فى نفسه ، فكيف قال ما لهم به
من علم ؟ فالجواب أن انتفاء العلم بالشىء قد يكون للجهل بالطريق الموصل
إليه ، وقد يكون لأنه فى نفسه محال لا يمكن تعلق العلم به ، ونظيره قوله
- تعالى - : د ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به ، (٢) .

وقوله - تعالى - . د كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ،
ضم شديد لهم على ما نطقوا به من كلام يدل على فرط جهلهم ، وعظم كذبهم .
وكبر : فعل مفض لإشياء الذم ، فهو من باب نعم وبشر ، وفاعله ضمير

(١) - سورة الأنعام الآيتان ١٠٠ ، ١٠٨

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٤

(٢ - سورة الكهف)

مخذوف ، مضمرة بالنكرة بعدة وهي قوله ، كربة ، المنصوبة على أنها تميز .
والخصوص بالذم مخذوف .

والتقدير : كبرت هي كربة خارجة من أفواههم تلك المقالة الشنعاء التي
تفوهوا بها ، وهي قولهم : اتخذ الله ولدا ، فإنهم ما يقولون إلا قولا كاذبا ،
محالا على الله - تعالى - ومخالفا للواقع ، ومنافيا للحق والصواب .

وفي هذا التعبير ما فيه من استعظام قبح ما نطقوا به ، حيث وصفه
- سبحانه - بأنه مجرد كلام لا كنه السنتهم ، ولا دليل عليه سوى كذبهم
وافترائهم .

قال صاحب الكشف : قوله ، كبرت كربة ، قرى . كبرت كربة بالرفع
على الفاعلية ، وبالنصب على التمييز . والنصب أقوى وأبلغ ، وفيه معنى التمجيد
كأنه قيل : ما أكبرها كربة .

وقوله ، تخرج من أفواههم ، صفة للكلمة تفيد استعظاما لاجترائهم على
النطق به ، وإخراجها من أفواههم ، فإن كثيرا مما يوسوسه الشيطان في قلوب
الناس ويحدثون أنفسهم به من المنكرات ، لا يتنبأ أن يكون أن يتفوهوا به ،
ويطلقوا به السنتهم ، بل يكظمون عليه قباعدا من إظهاره ، فكيف بهذا
المنكر ؟

فإن قلت : لإلام يرجع الضمير في ، كبرت ، ؟ قلت : إلى قولهم اتخذ الله
ولدا . وسميت كربة كما يسمون القصيدة بها ، (١) .

وشبه هذه الآية في استعظام ما نطقوا به من قبح قوله - تعالى - : وقالوا
اتخذ الله ولدا ، لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق
الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغي للرحمن أن يتخذ
ولدا .. (٢)

(١) تفسير الكشف ج ٢ ص ٧٢٤

(٢) سورة مريم الآيات من ٨٨ - ٩٢

ثم - سبحانه - ما يسلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من حزن بسبب إعراض المشركين عن دعوة الحق ، فقال - تعالى - : **فأهلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا** ،

قال بعض العلماء ما ملخصه : اعلم - أولا - أن لفظة **د لعل** ، تكون للترجى فى المحبوب ، وللإشفاق فى المحذور . واستظهر أبو حيان أن **د لعل** ، هنا للإشفاق عليه - صلى الله عليه وسلم - أن يبخع نفسه لعدم إيمانهم .

وقال بعضهم أن **د لعل** ، هنا للنهى . أى لا تبخع نفسك لعدم إيمانهم . . وهو الأظهر ، لكثرة ورود النهى صريحا عن ذلك ، قال - تعالى - **فلا تذهب نفسك عليهم حسرات** . . ، (١) .

وقوله **د باخع** ، من البخع ، وأصله أن تبلغ بالذبح الذخاع - بكسر الباء - وهو عرق يجرى فى الرقبة . وذلك أقصى حد الذبح . يقال : **بخع فلان نفسه بخعا وبخوعا** .

أى : قتلها من شدة الغيظ والحزن ، وقوله : **د على آثارهم** ، أى : على أثر توليهم وإعراضهم عنك وقوله **د أسفا** ، أى : هما وغما مع المبالغة فى ذلك ، وهو مفعول لأجله .

والمعنى : **لأنتمك نفسك** - أيها الرسول الكريم - هما وغما ، بسبب عدم إيمان هؤلاء المشركين . وبسبب إعراضهم عن دعوتك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ، و **د إنك لا تهدى من أحببت** ولكن الله يهدي من يشاء .

قال الزمخشري : شبهه - سبحانه - وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به ، وما داخله من الوجد والأسف على توليهم ، برجل فارقتة أحبته وأعزته ،

فهو يتساقط حسرات على آثارهم ؛ ويذبح نفسه وجدا عليهم ، وتلفها على فراقهم ، (١) .

وقوله — تعالى — : وإنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا . وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا ، تعليل للنهي المقصود من الترجي في قوله : فلعلك باخع . . ، وزيادة في تسليته . صلى الله عليه وسلم . عما أصابه من غم وحزن بسبب إصرار الكافرين على كفرهم .

أى : إنا بمقتضى حكمتنا — أيها الرسول الكريم — قد جعلنا ما على الأرض من حيوان ونبات وأنهار وبنيان . زينة لها ولأهلها . لنبلوهم أيهم أحسن عملا ، أى : أى لنختبرهم عن طريق ما جعلنا زينة للأرض ولأهلها : أيهم أتبع لأمرنا ونهيها ، وأسرع في الاستجابة لطاعتنا ، وأبعد عن الاغترار بشموانها ومتعها . وإنا — أيضا — بمقتضى حكمتنا ، لجاعلون ما عليها من هذه الزينة في الوقت الذى نريده لنهاية هذه الدنيا ، صعيدا ، أى : ترابا وجرزا ، أى : لا نبات فيه ، يقال أرض جرز ، أى : لا تنبت : أو كان نبات ثم زال .

ويقال : جرزت الأرض : إذا ذهب نباتها بسبب القحط ، أو الجراد الذى أتى على نباتها قال تعالى — : أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ، فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ، (٢)

والمقصود من الآيتين الزيادة في تثبيت قلب النبي — صلى الله عليه وسلم — وفي تسليته عما لحقه من حزن بسبب إصرار الكافرين على كفرهم .

فسكانه — سبحانه — يقول له . لمض أيها الرسول الكريم في تبليغ ما أوحيناك إليك ، ولا تبال بإصرار الكافرين على كفرهم ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فإن حكمتنا قد اقتضت أن نجعل ما على الأرض من كل ما يصلح أن يكون زينة لها ولهم ؛ موضع لإبتلاء واختبار للناس ، ليميز الحسن من

المسيح ، كما اقتضت حكمتهنا - أيضاً - أن نصير ما على هذه الأرض عند انقضاء عمر الدنيا تراباً قاحلاً لا نبات فيه ، ويعقب ذلك الجزاء على الأعمال ، وسننتقم لك من أعدائك ، فاصبر صبراً جميلاً . لأنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً .

وفي التعبير عما على الأرض بالزينة ، إشارة إلى أن ما عليها مهما حسن شكله ، وعظم ثمنه . فهو إلى زوال ، شأنه في ذلك شأن ما يتزين به الرجال والنساء من ملابس وغيرها ، يتزينون بها لوقت ما ثم يتركونها وتتركهم . وقوله : لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ، تعليل لما اقتضته حكمته من جعل ما على الأرض زينة لها .

أى : فعلنا ذلك لنتخير الناس على السنة رسلنا ، أيهم أحسن عملاً ، بحيث يكون عمله مطابقاً لما جئت به - أيها الرسول الكريم - ، وخالصاً لوجهنا ، ومبنياً على أساس الإيمان والعقيدة الصحيحة .

قال تعالى : تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً

وفي الحديث الشريف : إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فمناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء . .

وقوله - سبحانه - : ولنا لجانحون ما عليها صعيدا جرزا ، زيادة في التزهيد في زينتها ، حيث إن مصيرها إلى الزوال ، وحض على التزود من العمل الصالح الذي يزدى بالإنسان إلى السعادة الباقية الدائمة .

وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد قررت أن الشئ الكامل إنما هو الله - عز وجل - ، وأن الكتاب الذي أنزله على عبده ونبيه - صلى الله عليه وسلم - لا عوج فيه ولا ميل ، وأن وظيفة هذا الكتاب إنذار الكافرين بالعقاب ، وتبشير المؤمنين بالثواب ، كما أن من وظيفته تثبيت قلبه - صلى الله عليه وسلم -

وتسليته عما أصابه من أعدائه ، ببيان أن الله - تعالى - قد جعل هذه الدنيا بما فيها من زينة ، دار إختبار وإمتحان ليعتبر المحسن من المسىء ، وليجازى - سبحانه - الذين أساؤا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك قصة أصحاب الكهف ، وبين أن قصتهم ليست عجيبة بالنسبة لقدرته - عز وجل - فقد أوجد - سبحانه - ما هو أعجب وأعظم من ذلك ، فقال - تعالى - :

« أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) » .

قال الإمام الرازى : اعلم أن القوم تعجبوا من قصة أصحاب الكهف ، وسألوا عنها الرسول - صلى الله عليه وسلم - على سبيل الامتحان ، فقال - تعالى - : أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ؟ لا تحسبن ذلك فإن آياتنا كلها عجب فإن كان قادرا على خلق السموات والأرض ، وعلى تزيين الأرض بما عليها من نبات وحيوان ومعادن ، ثم يعلم ما بعد ذلك صعيدا جرزا خالية من الكل ، كيف يستبعد من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة من الناس مدة ثلاثمائة سنة وأكثر في النوم ... ، (١)

وعلى ذلك يكون المقصود بهذه الآيات الكريمة ، بيان أن قصة أصحاب الكهف ليست شيئا عجبا بالنسبة لقدرة الله - تعالى - .

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول قصة أصحاب الكهف روايات

مأخضا : أن قريشا بعثت النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط ، إلى
أحبار اليهود بالمدينة ، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد - صلى الله عليه وسلم - ،
وصفوا لهم صفة ، وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول . وعندهم
من العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء .

فخرجوا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - ووصفوا لهم أمره .

فقالوا لها سلوه عن ثلاث تأمركم بهن . فإن أخبركم بهن ، فهو نبي مرسل
وإن لم يفعل فالرجل متقول .

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ماذا كان من خبرهم . فإنهم قد كان
من خبرهم ، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب .

وسلوه عن رجل طواف طاف المشارق والمغارب ماذا كان من خبره ؟
وسلوه عن الروح ، ما هو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه .

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش . فقالا : يا معشر قريش ،
قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله
عن أمور .

ثم جاءوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا يا محمد أخبرنا ،
ثم سألوهم عما قالتهم لهم يهود .

فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سأجيبكم غدا بما سألتهم عنه
ولم يستثن - : أي . ولم يقل إن شاء الله - فأنصروا عنه .

ومكث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خمس عشرة ليلة . لا يحدث الله
إليه في ذلك رحيا ، ولا يأتيه جبريل - عليه السلام - حتى أرجف أهل مكة
وقالوا : وعدنا محمد غدا ، واليوم خمسة عشرة قد أصبحنا فيها ، لا يخبرنا بشيء
عما سأله عنه . وحتى أحزن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكث الوحى عنه ،

وشق عليه ما تكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل من عند الله بسورة أصحاب الكهف ، فيها معانيته لإياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سأله عنه من أمر الفتية والرجل الطواف ، وقول الله - تعالى - : ويسألوك عن الروح قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ، (١) .

والخطاب في قوله - تعالى - ، أم حسبت . . . ، للرسول - صلى الله عليه وسلم - وبدخل فيه غيره من المكلفين .

و د أم ، في هذه الآية هي المنقطعة ، وتفسر عند الجمهور بمعنى بل والهمزة أى : بل أحسبت ، وعند بعض العلماء تفسر بمعنى بل ، فتكون للانتقال من كلام إلى آخر . أى : بل حسبت . ويرى بعضهم أنها هنا بمعنى الهمزة التي للاستفهام الإنكاري أى : أحسبت أن أصحاب الكهف والرقم .

والكهف : هو النقب المتسع في الجبل ، فإن لم يكن فيه سعة فهو غار ، وجمعه كهوف .

والمراد به هنا : ذلك الكهف الذي اتخذوه هؤلاء الفتية مستقرا لهم .

وأما الرقم فقد ذكروا في المراد به أقوالا متعددة منها : أنه اسم كلهم ، ومنها أنه اسم الجبل أو الوادي الذي كان فيه الكهف ، ومنها أنه اسم القرية التي خرج منها هؤلاء الفتية .

ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن المراد به اللوح الذي كتبت فيه أسماءهم وأنسابهم وقصصهم ، فيكون الرقم بمعنى المرقوم - فهو فاعيل بمعنى مفعول - وما أخذ من رقت الكتاب إذا كتبه .

ومنه قوله - تعالى - : كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين . وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم ، (٢) .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٢٢ .

(٢) سورة المطففين الآيات ١٨ - ٢٠ .

أى مكتوب .

قال بعض العلماء : والظاهر أن أصحاب الكهف والرقم : طائفة واحدة
أضيفت إلى شيتين :

أحدهما معطوف على الآخر ، خلافا لمن قال أن أصحاب الكهف طائفة
وأصحاب الرقم طائفة أخرى وأن الله قصص على نبيه في هذه السورة الكريمة
قصة أصحاب الكهف ، ولم يذكر له شيئا عن أصحاب الرقم . وخلافا لمن
زعم أن أصحاب الكهف هم الثلاثة الذين سقطت عليهم صخرة فمدت عليهم
باب الكهف فدعوا الله بصالح أعمالهم فانفجرت ، وهم البار بوالديه ،
والعفيف ، والمستأجر . وقصتهم مشهورة ثابتة في الصحيح ، إلا أن تفسير
الآية بأنهم هم المراد بعيد كما ترى ، (١) .

والمعنى : أظننت - أيها الرسول الكريم - أن ما قصصناه عليك من شأن
هؤلاء الفتية ، كان من بين آياتنا الدالة على قدرتنا شيئا عجبا ؟ لا لا نظن ذلك
فإن قدرتنا لا يعجزها شيء .

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه عندما حطوا رحالهم في الكهف فقال : إذ
أوى الفتية إلى الكهف فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة . وهي لنا من
أمرنا رشداً .

و ، إذ ، هنا ظرف منصوب بفعل تقديره ، : اذكر .

و ، أوى ، فعل ماض - من باب ضرب - تقول : أوى فلان إلى مسكنه
يأوى إذا نزل به بنفسه . واستقر فيه .

و ، الفتية ، : جمع قلة لفني . وهو وصف للإنسان عندما يكون في
مطلع شبابه .

وقوله : د وهيء لنا من أمرنا : من التهيئة بمعنى : تيسير الأمر وتفريبه وتسهيله حتى لا يخالطه عسر أو مشقة .

والمراد بالامر هنا : ما كانوا عليه من تركهم لأهل بيهم ومساكنهم ، ومن مفارقتهم لما كان عليه أعداؤهم من عقائد فاسدة .

والرشد : الاهتداء إلى الطريق المستقيم مع البقاء عليه . وهو ضد الغي . يقال : رشد فلان يرشد رشدًا ورشادًا ، أصاب الحق .

أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - للناس ليعتبروا ، وقت أن خرج هؤلاء الفتية من مساكنهم ، تاركين كل شيء خلفهم من أجل سلامة عقيدتهم فالتجأوا إلى المكف ، واتخذوه مأوى لهم ، وتضرعوا إلى خالقهم قائلين : ياربنا آتنا من لدنك رحمة ، تهدي بها قلوبنا ، وتصلح بها شأننا ، وترد بها الفتن عنا ، كما نسألك ياربنا أن تهين لنا من أمرنا الذي نحن عليه ، وهو : فرارنا بديننا ، وثباتنا على إيماننا ، ما يزيدنا سدادًا وتوفيقًا لطاعتك .

وقال - سبحانه - : د إذا أوى الفتية . . . ، بالإظهار - مع أنه قد سبق الحديث عنهم بأنهم أصحاب المكف لتحقيق ما كانوا عليه من فتوة ، وللتنصيص على وصفهم الدال على قلتهم ، وعلى أنهم شباب في مقتبل أعمارهم ، ومع ذلك ضحوا بكل شيء في سبيل عقيدتهم .

والتعبير بالفعل . أوى ، يشعر بأنهم مجرد عثورهم على المكف . ألقوا رحالهم فيه . واستقروا به استقرار من عثر على ضالته ، وآثروه على مساكنهم المربحة ، لأنه وارا هم عن أعين القوم الظالمين .

والتعبير بالغاء في قوله - سبحانه - د فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة . . ، يدل على أنهم مجرد استقرارهم في المكف ابتلوا إلى الله - تعالى - بهذا الدعاء الجامع لكل خير :

والتنوين في قوله : د رحمة ، : للتحويل والتنويع . أى : آتنا ياربنا

ياربنا من عندك وحدك لا من غيرك . رحمة عظيمة شاملة لجميع أحوالنا
وشتونا . فهي تشمل الأمان في المنزل ، والسعادة في الرزق ، والمغفرة
للذنوب .

قال القرطبي ما ملخصه : هذه الآية صريحة في الفرار بالدين وهجرة
والأهل والأوطان . . خوف الفتنة ، ورجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة
الكافرين . . (١) .

ثم بين - سبحانه - ما حدث هؤلاء الفتية بعد أن لجأوا إلى الكهف ،
وبعد أن دعوا الله بهذا الدعاء الشامل لكل خير . فقال : « فضربنا على آذانهم
في الكهف سنين عددا ، .

وأصل الضرب في كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء ظاهر جسم ، بظاهر
جسم آخر بشدة .

يقال : ضرب فلان يده الأرض إذا ألصقها بها بشدة ، وتفرعت عن هذا
المعنى معان أخرى ترجع إلى شدة اللصوق .

والمراد بالضرب هنا النوم الطويل الذي غشاهم الله - تعالى - به فصاروا
لا يحسون شيئاً مما حولهم ، ومفعول ضربنا محذوف .

والمعنى : بعد أن استقر هؤلاء الفتية في الكهف ، وتضرعوا إلينا بهذا
الدعاء العظيم ، ضربنا على آذانهم وهم في الكهف حجاً ثقيلاً مانعاً من
السماع ، فصاروا لا يسمعون شيئاً يوقظهم ، واستمروا في نومهم العميق هذا
« سنين ، ذات عدد كثير ، بينها - سبحانه - بعد ذلك في قوله : « ولبثوا في
كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ، .

وخص - سبحانه - الأذان بالضرب ، مع أن مشاعرهم كلها كانت محجوبة
عن اليقظة ، لأن الأذان هو الطريق الأول للتيقظ . ولأنه لا يشغل النوم إلا
عندما تتعطل وظيفة السمع .

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٣٦٠ .

وقد ورد أن النبي - صلى الله عليه وسلم - عندما علم أن رجلا لا يستيقظ مبكرا أن قال في شأنه ؛ ذلك رجل قد بال الشيطان في أذنه ، أى : فمنعها من التبكير واليقظة قبل طلوع الشمس .

والتعبير بالضرب - كما سبق أن أشرنا - للدلالة على قوة المباشرة . وشدة اللصوق واللزوم ، ومنه قوله تعالى - د وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، أى : التصقت بهم التصاقا د لا فيكك لهم منه ، ولا مهرب لهم عنه .

ثم بين - سبحانه - ما حدث لهم بعد هذا النوم الطويل فقال : ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما ابشوا أمداً ، .

وأصل البعث فى اللغة : إثارة الشئ من محله وتحويله بعد سكون . ومنه قولهم : بعث فلان الناقة - إذا أثارها من مبركها للسير ، ويستعمل بمعنى الإيقاظ وهو المقصود هنا من قوله د بعثناهم ، أى : أيقظناهم بعد رقادهم الطويل .

وقوله د لنعلم أى الحزبين ٠٠٠ ، بيان للحكمة التى من أجلها أيقظهم الله من نومهم .

وكثير من المفسرين على أن الحزبين أحدهما : أصحاب الكهف والثانى : أهل المدينة الذين أيقظ الله أهل الكهف من رقادهم فى عهدهم ، وكان عندهم معرفة بشأنهم .

وقيل : هما حزبان من أهل المدينة الذين بعث هؤلاء الفتية فى زمانهم ، إلا أن أهل هذه المدينة كان منهم حزب مؤمن وآخر كافر .

وقيل : هما حزبان من المؤمنين كانوا موجودين فى زمن بعث هؤلاء الفتية ، وهذان الحزبان اختلفوا فيما بينهم فى المسئلة التى مكثها هؤلاء الفتية رقوداً .

والذى تطمئن إليه النفس أن الحزبين كليهما من أصحاب الكهف ، لأن الله - تعالى - قد قال بعد ذلك - وكذلك بعثناهم - أى الفتية - لينساءوا

بينهم ، قال قائل منهم كم لبثتم ، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم

قال الآلوسى : ثم بعثناهم ، أى : أبقظناهم وأنزلناهم من نومهم ، لنعلم أى الحزبين ، أى : منهم ، وهم القائلون و لبثنا يوما أو بعض يوم ، والقائلون و ربكم أعلم بما لبثتم .

وقيل : أحد الحزبين الفتية الذين ظنوا قلة زمان لبثهم ، والثانى أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم وكان عندهم تاريخ غيبتهم . . . والظاهر الأول لأن اللام للعهد ، ولا عهد لغير من سمعت ، (١) .

والمراد بالعلم فى قوله و لنعلم . . . ، إظهار المعلوم ، أى ثم بعثناهم لنعلم ذلك علما يظهر الحقيقة التى لا حقيقة سواها للناس .

ويجوز أن يكون العلم هنا بمعنى التمييز ، أى : ثم بعثناهم لتمييز أى الحزبين أحصى لما لبثوا أبدا .

فهو من باب ذكر السبب وإرادة المسبب ، إذ العلم سبب للتمييز .
ولفظ و أحصى ، يرى صاحب الكشف ومن تابعه أنه فعل ماض ، ولفظ و أمدا ، مفعوله ، و دما ، فى قوله ولما لبثوا ، مصدرية ، فيكون المعنى ، ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين اضطبط أمدا - أى مدة - لبثهم فى الكهف .
قال صاحب الكشف : و دأحصى ، فعل ماض ، أى : أيهم اضطبط دأمدا ، لأوقات لبثهم .

فإن قلت : فما تقول فىمن جعله من أفعال التفضيل ؟ قلت : ليس بالوجه السديد ، وذلك أن بناءه من غير الثلاثى المجرى ليس بقياس . . . والقياس على الشاذ فى غير القرآن ممتنع فكيف به . . . (٢) ؟

(١) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٢١٢

(٢) راجع الكشف ج ٢ ص ٤٧٤

وبعضهم يرى أن لفظ «أحصى» صيغة تفضيل، وأن قوله «دأبوا» منصوب على أنه تميم وفي إظهار هذه الحقيقة للناس، وهي أن الله - تعالى - قد ضرب النوم على آذان هؤلاء الفتية ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا، ثم بعثهم بعد ذلك دون أن يتغير حالهم، أقول: في إظهار هذه الحقيقة دليل واضح على قدرة الله - تعالى - وعلى وجوب إخلاص العباد له، وعلى أن البعث بعد الموت حق لا ريب فيه.

وبذلك تكون هذه الآيات قد ساقت لمناقشة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار، ثم جاءت آيات بعد ذلك لتحكي لمناقشتهم على سبيل التفصيل والبسط، وهذه الآيات هي قوله - تعالى - :

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ، إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ، فَنَظْمٌ يَمُنُّ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا (١٦) » .

أى : نحن ، وحدنا يا محمد ، نقص عليك وعلى أمتك خبر هؤلاء الفتية قصصا لحته وسداه الحق والصدق ، لأنه قصص من ربك الذى لا يخفى عليه شئ . فى الأرض ولا فى السماء .

وقوله : « إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى » ، كلام مستأنف جواب عن سؤال تقديره ما قصتهم وما شأنهم بالتفصيل ؟

أى : إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ أَخْلَصُوا الْعِبَادَةَ لِلْخَالِقِ ، وَأَسْلَمُوا وَجُوهَهُمْ لِبَارِئِهِمْ ،

وآمنوا بربوبيته - سبحانه - لإيماننا عميقاً ثابتاً ، فزادهم الله ببركته هذا الإخلاص والثبات على الحق ، هداية على هـ - إيمانهم ، وإيماننا على إيمانهم .

وقوله - سبحانه - : نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، إيمانهم إلى أن قصة هؤلاء الفتية كانت معروفة لبعض الناس ، إلا أن معرفتهم بها كانت مشوبة بالخرافات والأباطيل .

قال ابن كثير : ما ملخصه : ذكر الله - تعالى - أنهم كانوا فتية - أي شباباً - ، وهم أقبل للحق من الشيوخ ، الذين عتوا في دين الباطل ، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله شباباً ، وأما المشايخ من قريش ، فعامتهم بقوا على دينهم ، ولم يسلم منهم إلا القليل .

واستدل غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره بقوله : وزدناهم هدى ، إلى أن الإيمان يزيد وينقص ... ، (١) .

ثم حكى - سبحانه - جانباً من مظاهر هدايته لهم فقال : وربطنا على قلوبهم إذ قاموا ،

وأصل الربط : الشد ، يقال ، ربطت الدابة ، أي : شدتها برباط ، والمراد به هنا : ما غرسه الله في قلوبهم من قوة ، وثبات على الحق ، وصبر على فراق أهليهم : ومنه قولهم : فلان رابط الجأش ، إذا كان لا يفزع عند الشدائد والمكروب .

والمراد بقيامهم : عقدهم العزم على مفارقة ما عليه قومهم من باطل ، وتصميمهم على ذلك تصميمياً لا تزحزحه ، الخطوب مهما كانت جسيمة .

ويصح أن يكون المراد بقيامهم : وقوفهم في وجه ملوكهم الجبار بثبات وقوة ، دون أن يباليوا به عندما أمرهم بعبادة ما يعبدونه قومهم ، وإعلانهم دين التوحيد ، ونهزم لكل ما سواه من شرك وضلال .

قال القرطبي ماملخصه : قوله - تعالى - « إذ قاموا » ، يحتمل ثلاثة ممان .
أحدها : أن يكون هذا وصف مقامهم بين يدي الملك الكافر ، وهو مقام
يحتاج إلى الربط على القلب حيث خالفوا دينه ، ورفضوا مادعاهم إليه .

والمعنى الثاني فيما قيل : إنهم أولاد عظماء تلك المدينة فخرجوا واجتمعوا
وراءها من غير ميعاد ، وتعاهدوا على عبادة الله وحده .

والمعنى الثالث : أن يعبر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله
- تعالى - ومناذرة الناس ، كما تقول : قام فلان إلى أمر كذا ، إذا عزم عليه
بغاية الحد (١) .

وعلى أية حال فالجملة الكريمة تفيد أن هؤلاء الفتية كانت قلوبهم ثابتة
راسخة ، مطمئنة إلى الحق الذي اهتمت إليه ، معتزة بالإيمان الذي أشربته ،
مستبشرة بالإخاء الذي جمع بينها على غير ميعاد ، وصدق رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - إذ يقول : الأرواح جنود مجنده ، فما تعارف منها ائتلف
وما تناكر منها اختلف .

نم حكى - سبحانه - ما قالوه بعد أن استقر الإيمان في نفوسهم فقال :
« فقالوا ربنا رب السموات والأرض ، ان ندعو من دونه إلها . . . » .

أى : أعلنوا برايتهم من كل خضوع لغير الله - عز وجل - حين قاموا
في وجه أعدائهم ، وقالوا بكل شجاعة وجرأة : ربنا - سبحانه - هو رب
السموات والأرض ، وهو خالقهما وخالق كل شيء ، وإن نعبد سواه أى
معبود آخر .

ونفوا عبادتهم لغيره - سبحانه - بحرف - « ان » ، الإشعار بتصميمهم على
ذلك في كل زمان وفي كل مكان ، إذ النفي بـ « ان » أبلغ من النفي بغيرها .

قال الآلوسى : وقد يقال : إنهم أشاروا بالجملة الأولى - وهى : ربنا رب

السموات والأرض - إلى توحيد الربوبية ، وأشاروا بالجملة الثانية - لن ندعو من دونه إلهًا - إلى توحيد الألوهية ، وهما أمران متغايران ، وعبدية لاوثان لا يقولون بهذا ، ويقولون بالأول : . ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، وحكى - سبحانه - عنهم أنهم يقولون : « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » وصرح أنهم كانوا يقولون : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك ، (١) .

وقوله - سبحانه - « لقد قلنا إذا شططا » تأكيد لبرائتهم من كل عبادة لغير الله - تعالى - .

والشطط : مصدر معناه مجاوزة الحد في كل شيء . ، ومنه : أشط المان في السوم ، إذا جاوز الحد ، وأشط في الحكم إذا جاوز حدود العدل : وهو وصفة لموصوف محذوف وفي الكلام قسم مقدر ، واللام في « لقد » واقعة في جوابه ، و « إذا » حرف جواب وجزاء فتدل على شرط مقدر .

أى : ربنا رب السموات والأرض ، لن ندعو من دونه إلهًا . ولو فرض أننا دعونا وعبدنا من دونه إلهًا آخر ، والله لنكونن في هذه الحالة قد قلنا إذا قولا شططا ، أى : بعيدا بعدا واضحا عن دائرة الحق والصواب .

فالأية الكريمة تدل على قوة إيمان هؤلاء الفتية ، وعلى أن من كان كذلك ثبت الله - تعالى - قلبه ، وقواه على تحمل الشدائد ، كما تدل أن من أشرك مع الله - تعالى - إلهًا آخر ، يكون بسبب هذا الإشراك ، قد جاء بأمر شطط بعيد كل البعد عن الحق والصواب وصدق الله إذ يقول : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق » ، (٢) .

ثم حكى - سبحانه - عن هؤلاء الفتية أنهم لم يكتفوا بإعلان إيمانهم

(١) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٢١٩ .

(٢) سورة الحج الآية ٣١ .

الصادق ، بل أضافوا إلى ذلك إستنكارهم لما عليه قومهم من شرك فقال :
 « هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين . . . » .
 و « هؤلاء ، مبتدأ ، و « قومنا ، عطف بيان ، وجملة ، اتخذوا من دونه
 آلهة ، هي الخبر .

و « لولا ، نلتحضيض ، وهر الطلب بشدة . والمقصود بالتحضيض هنا
 الإنكار والتعجيز ، إذ من المعلوم أن قومهم لن يستطيعوا أن يقيموا الدليل
 على صحة ما هم عليه من شرك .

والمراد بالسلطان البين : الحجة الواضحة .

أى : أن أولئك الفتية بعد أن إجتمعوا ، وتعاهدوا على عبادة الله - تعالى -
 وحده ، ونبذ الشرك والشركاء قالوا على سبيل الإنكار والاحتقار لما عليه
 قومهم : هؤلاء قومنا بلغ بهم السفه والجهل ، أنهم اتخذوا مع الله - تعالى -
 أصناما يشركونها معه فى العبادة ، هلا أتى هؤلاء السفهاء بحجة ظاهرة تؤيد
 دعواهم بأن هذه الأصنام تصلح آلهة لاشك أنهم لن يستطيعوا ذلك .

قال صاحب المكشاف وقوله : « لولا يأتون عليهم بسلطان بين ، تمكيت
 لأن الإتيان بالسلطان على صحة عبادة الأوثان محال . وهو دليل على فساد
 التقليد ، وأنه لا بد فى الدين من حجة حتى يصح ويثبت ، (١) .

وشبه هذه الآية فى تعجيز المشركين وتجهيأهم قوله تعالى : قل هل عندكم
 من علم فتخرجوه لنا ، إن تدبرون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون ، (٢) .
 وقوله - سبحانه - : « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ، أرونى ماذا
 خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك فى السموات ، أئتوني بكتاب من قبل هذا
 أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ، (٣) :

(١) تفسير المكشاف ج ٢ من ٤٧٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٤٨ . (٣) سورة الأحقاف الآية ٤ .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على تكذيبهم لقومهم ،
ووصفهم لإيادهم بالظلم فقال : « فن أظلم ممن افترى على الله كذباً » ،

أى : لا أحد أشد ظلماً من قوم افتروا على الله - تعالى - الكذب ،
حيث زعموا أن له شريكاً فى العبادة والطاعة ، مع أنه - جل وعلا - منزه عن
الشريك والشركاء : « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما تناجوا به فيما بينهم ، بعد أن وضح موقفهم
وضوحاً صريحاً حاسماً ، وبعد أن أعلنوا كلمة التوحيد بصدق وقوة ... فقال
- تعالى - : « وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ، فأووا إلى الكهف ينشر
لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً » .

و « إذ » ، يبدو أنها هنا للتعليل . والاعتزال : تجنب الشيء سواء أكان
هذا التجنب بالبدن أم بالقلب . و « وما » ، فى قوله « وما يعبدون إلا الله » اسم
موصول فى محل نصب معطوف على الضمير فى قوله « اعتزلتموهم » ، وقوله :
« إلا الله » استثناء متصل ، بناء على أن القوم كانوا يعبدون الله - تعالى -
ويشركون معه فى العبادة الأصنام . و « من » ، قالوا إنها بمعنى المدلية .

وقوله : « مرفقاً » ، من الإرتفاق بمعنى الانتقاع . وقرأ نافع وابن عامر
مرفقاً - بفتح الميم وكسر الفاء - .

والمعنى : أن هؤلاء الفتية بعد أن أعلنوا كلمة التوحيد ، وعقدوا العزم
على مفارقة قومهم المشركين تناجوا فيما بينهم وقالوا : « ولأجل ما أنتم مقدمون
عليه من اعتزالكم لقومكم الكفار ، واعتزالكم الذى يعبدونه من دون الله ،
لأجل ذلك . فاجأوا إلى الكهف ، واتخذوه مأوى ومستقراً لكم ، ينشر لكم
ربكم الكثير من الخير بفضله ورحمته ، ويهيئ لكم بدلاً من أمركم الصعب .
أمراً آخر فيه اليسر والنفع » .

وفى التعبير : « ... » . ينشر لكم ربكم من

رحمته . . . ، دلالة واضحة على صدق إيمانهم وحسن ظنهم الذي لا حدود له ،
بربهم - عز وجل - فهم عند ما فارقوا أهلهم وأموالهم وزينة الحياة ، وقرروا
اللجوء إلى الكهف الضيق الخشن المظلم . . . لم يياسوا من رحمة الله ، بل
أيقنوا أن الله - تعالى - سيرزقهم فيه الخير الوفير ، ويسر لهم ما ينتفعون به ،
ببركة إخلاصهم وصدق إيمانهم .

وهكذا الإيمان الصادق ، يجعل صاحبه يفضل المكان الخالي من زينة
الحياة ، من أجل سلامة عقيدته ، على المكان المليء باللين والرخاء الذي يحس
فيه بالخوف على عقيدته .

فآية الكريمة تدل على أن إعزال الكفر والكافرين من أجل حماية
الدين ، يؤدي إلى الظفر برحمة الله وفضله وعظائمه العميم وصدق الله إذ يقول
في شأن إبراهيم - عليه السلام - « واعتز لكم وما تدعون من دون الله وادعو
ربي عسى أن أكون بدعاء ربي شقيا ، فلما اعتز لهم وما يعبدون من دون
الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ، وهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا
لهم لسان صدق عليا ، (١) » .

ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال هؤلاء الفتية بعد أن
استقروا في الكهف . وبعد أن ألقى الله - تعالى - عليهم بالانوم الطويل
فتقول :

« وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَإِذَا
غَرَبَتْ تَقَرَّبَتْ إِلَيْهِمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ
مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا (١٧)
وَحَسْبَهُمْ أَيْقَاطًا وَهُمْ رَقُودٌ ، وَنَقَلَبَهُمُ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ ،

وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ، لو اطلعت عليهم لوئيت منهم فراراً ،
ولمليت منهم رعباً (١٨) .

قال الآلوسی : قوله : « وترى الشمس ... » بيان لحالهم بعد ما أووا إلى
الكهف ... والخطاب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو لكل أحد من
يصلح ، وهو اللبالة في الظهور ، وليس المراد الإخبار بوقوع الرؤية ، بل
المراد الإخبار بكون الكهف لو رأيته ترى الشمس إذا طلعت تزاور عن
كفهم ذات اليمين ... ، (١) .

وقوله ، تزاور ، من الزور بمعنى الميل . ومنه قولهم : زار فلان صديقه ،
أى : مال إليه : ومنه شهادة الزور ، لأنها ميل عن الحق إلى الباطل . ويقال :
فلان أزور ، إذا كان مائل الصدر ، ويقال : تزاور فلان عن الشيء ، إذا
إنحرف عنه .

وفي هذا المفظ ثلاث قراءات سبعية : فقد قرأ ابن عامر ، تزور ، بزنة
تحممر . وقرأ السكوفيون - عاصم وحمزة والكسائي - « تزاور » . بفتح الزاى -
وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو « تزاور » بتشديد الزاى - . وأصله تزاور
فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً .

ومعنى : « تقرضهم » تقطعهم وتجاوزهم وتقرضهم . من القرض بمعنى
القطع والصرم ، يقال : قرض الماكان ، أى : عدل عنه وتركه .

والمعنى : أنك - أيها المخاطب - لو رايت أهل الكهف ، لرأيتم على هذه
الصورة ، وهى أن الشمس إذا طلعت من مشرقها ، مالت عن كفهم جهة
اليمين ، وإذا غربت ، تراها عند غروبها ، تميل عنهم كذلك ، فهم في الحالتين
لا تصل إليهم ، حماية من الله - تعالى - لهم ، حتى لا تؤذيهم بحرهما ، بأن تغير
ألوانهم ، وتبلى ثيابهم .

وقوله : « وهم في فجوة منه ، جملة حالية . أى : والحال أنهم في مكان متسع من الكهف وهو وسطه . والفجوة : هى المكان المتسع ، مأخوذة من الفجا ، وهو تباعد ما بين الفخذين ، ومنه قرطهم : رجل أنجى ، وأمرأة فجوا . والمفسرين في تأويل هذه الآية إلتجأها ن الخصمما الإمام الرازى فقال : للمفسرين هنا قولان : أولها : أن باب ذلك الكهف كان مفتوحا إلى جانب الشمال ، فإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف ، وإذا غربت كانت على شماله ، فضوء الشمس ما كان يصل إلى داخل الكهف ، وكان الهـراء الطيب والنسيم الموافق يصل .

والثانى : يرى أصحابه أنه ليس المراد ذلك ، وإنما المراد أن الشمس إذا طلعت منع الله - تعالى - ضوءها من الوقوع عليهم ، وكذا القول فى حال غروبها ، وكان ذلك فعلا خارقا للعادة ، وكرامة عظيمة خص الله بها أصحاب الكهف ... (١) .

ومن هذين الرأيين يتبين لنا أن أصحاب رأى الأول ، يرجعون عدم وصول حر الشمس إلى هؤلاء الفتية إلى أسباب طبيعية سماهم الله - تعالى - بها ومن بينها أن الكهف كان مفتوحا إلى جهة الشمال ...

أما أصحاب رأى الثانى فيردون عدم وصول أشعة الشمس إليهم إلى أسباب غير طبيعية ، بمعنى أن الفتية كانوا فى متسع من الكهف ، أى : فى مكان تصيبه الشمس ، إلا أن الله - تعالى - بقدرته التى لا يعجزها شىء ، منع ضوء الشمس وحرها من الوصول إليهم ، خرقا للعادة على سبيل التكريم لهم .

ومع وجاهة الرأيين ، إلا أن النفس أميل إلى رأى الثانى ، لأن قوله - تعالى - « وهم فى فجوة منه » ، يشير إلى أنهم مع إلتساع المكان الذى ينامون فيه - وهو الفجوة - لا تصيبهم الشمس لا عند الطلوع ولا عند الغروب وهذا

أمر خارق لعاده ، ويدل على عجب حالهم ، كما أن قوله - تعالى - بعد ذلك :
 ذلك من آيات الله ، يشعر بأن أمر هؤلاء الفتية فيه غرابة ، وليس أمراً
 عادياً مألوفاً .

قال الألوسي : وأكثر المفسرين على أنهم لم تصبهم الشمس أصلاً وإن
 اختلفوا في منشأ ذلك واختار جمع منهم ، أنه لمحض حجب الله - تعالى -
 الشمس على خلاف ما جرت به العادة ، والاشارة تؤيد ذلك أتم تأييد ،
 والاستبعاد مما لا يلتفت إليه ، لا سيما فيما نحن فيه ، فإن شأن أصحاب الكهف
 كله على خلاف العادة ... (١) .

وعلى هذا الرأي الثاني يكون لاسم الاشارة في قوله : ذلك من آيات الله
 إلى ما فعله الله - تعالى - معهم ، من حجب ضوء الشمس عنهم مع أنهم في
 متسع من الكهف .

أي : ذلك الذي فعلناه معهم من آياتنا الدالة على قدرتنا الباهرة ، وإرادتنا
 التي لا يعجزها شيء .

وأما على الرأي الأول فيكون لاسم الاشارة مرجعه إلى ما سبق من
 الحديث عنهم ، كمداباتهم إلى التوحيد ، وإخراجهم من بين عبدة الأوثان ،
 ولجوتهم إلى الكهف ، وجعل باب الكهف على تلك السكيفية ، إلى غير ذلك
 بما ذكر - سبحانه - عنهم .

أي : ذلك الذي ذكرناه لك عنهم - أيها الرسول الكريم - هو من آيات
 الله الدالة على وحدانيته وقدرته .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل
 فلن تجد له وليا مرشداً .

أى : من يهده الله إلى طريق الحق ، وبوفقه إلى الصواب ، فهو المهتد
أى : فهو الفائز بالخط الأوفر فى الدارين ، ومن يضلله الله - تعالى - عن
الطريق المستقيم ، فلن تجد له - يا محمد - نصيراً ينصره ، ومرشداً يرشده إلى
طريق الحق .

كما قال تعالى - : « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضل الله فإضلاله »
الخاسرون ، (١) .

وكما قال - سبحانه - : « ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضل الله فإضلاله »
أولياء من دونه ... ، (٢) .

ثم صور - سبحانه - بعد ذلك مشمداً عجيباً من أحوال هؤلاء الفتيمة فقال :
« ونحسبهم أبقاظاً وهم رقود ... »

والحسيان بمعنى الظن . والأبقاظ جمع يقظ وهو ضد النائم . والرقود :
جمع راقد والمراد به هنا : النائم .

أى : وتظنهم - أيها المخاطب لو قدر لك أن تراه - أيقاظاً منتهين ، والحال
أنهم رقود أى : نيام

وقالوا : وسبب هذا الظن والحسيان ، أن عيونهم كانت مفتوحة ، وأنهم
كانوا يتقلبون من جهة إلى جهة ، كما قال - تعالى - بعد ذلك : « ونقلبهم
ذات اليمين وذات الشمال » .

أى : ونحركهم وهم رقود إلى الجهة التى تلى أيانهم ، وإلى الجهة التى تلى
شمالهم ، رعاية منا لأجسادهم حتى لا تاكل الأرض شيئاً منها بسبب طول
رقادهم عليها .

وعدد مرات هذا التقليب ليعلمه إلا الله - تعالى - ، وما أورده المفسرون
فى ذلك لم يثبت عن طريق النقل الصحيح ، لذا ضربنا صفحاً عنه .

ثم دين - سبحانه - حالة - كلهم فقال : وكلهم باسط ذراعيه بالوصيد .
والمراد بالوصيد - على الصحيح - فناء الكهف قريباً من الباب ، أو هو
الباب نفسه . ومنه قول الشاعر : بأرض فضاء لا يسد وصيدها . أى :
لا يسد بابها .

أى : وكلهم الذى كان معهم فى رحلتهم . ماد ذراعيه بباب الكهف حتى
لكأنه يحرمهم . ويمنع من الوصول إليهم .
وما ذكره بعض المفسرين هنا عن اسم الكلب وصفاته ، لم نهم بذكره
لعدم قاعدته .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ولو أطلعت عليهم لوليت منهم فراراً
وللئت منهم رعباً .

أى : لو عاينتهم وشاهدتهم - أيها المخاطب - لأعرضت بوجهك عنهم من
هول ما رأيت . وللى قلبك خوفاً ورعباً من منظرهم .
وقد أخذ العلماء من هذه الآية أحكاماً منها : أن صحة الاختيار لها من
الفوائد ما لها .

قال ابن كثير - رحمه الله - . ربح كلهم على السباب كما جرت به عاد
الكلاب وهذا من سجيته وطبيعته حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم ، وكان
جلوسه خارج الباب . لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب - كما ورد فى
الصحيح - . . . وشملت كلهم بركنهم ، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك
الحال ، وهذا فائدة صحة الاختيار ، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن . (١)
وقال القرطبي - رحمه الله - ما ملخصه : قال ابن عطية : وحدثني أبى قال
سمعت أبا الفضل الجوهري فى جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسب
وستين وأربعمائة : إن من أحب أهل الخير قال من بركنهم ، كلب أحب أم
فضل وصحبهم فذكره الله فى محكم تنزيله .

قلت - أى القرطبي - : إذا كان بعض الكلاب نال هذه الدرجة العليا بصحبة و عاظمه الصالحاء والأولياء حتى أخبر الله بذلك كتابه ، فإظلم بالمؤمنين المخالطين المحبين للأولياء . والصالحين ١١ بل فى هذا تسليمة وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات المكلمات ، المحبين للنبي - صلى الله عليه وسلم - وآله خير آل .

روى فى الصحيح عن أنس قال : بينا أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم - خارجان من المسجد ، فلقينا رجلا عند سدة المسجد ، فقال : يا رسول الله . متى الساعة ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ما أعددت لها ؟ قال : فمكان الرجل استكان ثم قال : يا رسول الله ، ما أعددت لهما كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة ، واسكنى أحببت الله ورسوله ، قال - صلى الله عليه وسلم - : دأبت مع من أحببت .

وفى رواية قال أنس : فما فرحنا بعد الإسلام فرحا أشد من قول النبي - صلى الله عليه وسلم - دأبت مع من أحببت .

قال أنس . فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر ، فأرجو أن أكون معهم ، وإن لم أعمل بأعمالهم .

قلت : وهذا الذى نمسك به أنس يشمل من المسلمين كل ذى نفس ، فلذلك تعلقت أطماعنا بذلك ، وإن كنا مقصرين ، ورجونا رحمة الرحمن ، وإن كنا غير مستأهلين . (١) .

ثم حكى - سبحانه - حال هؤلاء الفتية بعد أن أعاد إليهم الحياة ، فذكر بعض أقوالهم فيما بينهم فقال - تعالى - :

« وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ، قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ، فَأَبَشَّرُوا أَحَدَكُمْ

وَرَقْمُكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ ، وَلَا يَشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ، أَوْ يُعِيدُكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ، وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدَأَ (٢٠) .

وقوله - سبحانه - : . وكذلك بعثناهم لينسألوا بينهم ، بيان للعلة التي من أجلها بعث أصحاب الكهف من نومهم الطويل .

أى : وكما أنعمناهم تلك المدة الطويلة ، بعثناهم من نومهم بعدها ، ليسأل بعضهم بعضا ، وكانهم قد أحسوا بأن نومهم قد طال .

والافتصار على التساؤل الذى حصل الإيقاظ من أجله ، لا ينفى أن يكون هناك أسباب أخرى غيره حصل من أجلها لإيقاظهم ، وإنما أفرد - سبحانه - بالذكر لاستتباعه لسائر الآثار الأخرى .

ثم حكى - سبحانه - بعض تساؤلهم فقال : د قال قائل منهم كم لبثتم ، أى . كم مكثتم مستغرقين فى النوم فى هذا الكهف .

فأجابه بعضهم بقوله : د لبثنا يوما ، لظنهم أن الشمس قد غربت ، فلما رأوها لم تغرب بعد قالوا : د أو بعض يوم . أى : مكثنا نائمين بعض ساعات اليوم . ويصح أن تكون أو للشك . أى قال بعضهم فى الرد على سؤال السائل كم لبثتم . لبثنا فى النوم يوما أو بعض يوم ، لأننا لا ندرى على الحقيقة كم مكثنا نائمين . ثم حكى القرآن أن بعضهم رد علم مقدار مدة نومهم على جهة اليقين إلى الله - تعالى - فقال : د قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ، أى : ربكم وحده هو العليم بمقدار الزمن الذى قضيتموه نائمين فى هذا الكهف ،

قال الألوسى : وهذا رد منهم على الأولين ، على أحسن ما يكون من مراعاة حسن الأدب ، وبه كما قيل يتحقق التحزب إلى الحزبين المعهودين فيما سبق فى قوله - تعالى - د لنعلم أى الحزبين ، (١) .

(١) تفسير الألوسى ج ١٥ ص ٢٢٩ .

وقال بعضهم : وقد استدل ابن عباس على أن عدد الفتية سبعة بهذه الآية ، لأنه قد قال في الآية قال قائل منهم وهذا واحد ، وقالوا في جوابه : لبثنا يوماً أو بعض يوم وهو جمع وأقنه ثلاثة ، ثم قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم ، وهذا قول جمع آخر بن فصاروا سبعة ، (١) .

ثم بين - سبحانه - ما قالوه بعد أن تركوا الحديث في مسألة الزمن الذي قضوه نائمين في الكهف فقال - تعالى - : فابعثوا أحدكم بورككم هذه إلى المدينة فليتنظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ، ولا يشعرن بكم أحداً .

أى : كفوا عن الحديث في مسألة المدة التي ناموها ، عند الله . وابعثوا أحدكم بورككم ، - .

أى : بدراهمكم المضروبة من الفضة ، إلى المدينة . التي يوجد بها الطعام الذى نحن فى حاجة إليه ، والتي هى أقرب مكان إلى الكهف .

قالوا : والمراد بها مدينتهم التي كانوا يسكنونها قبل أن يلجأوا إلى الكهف فراراً بدينهم .

فليتنظر أيها أزكى طعاما ، أى : ومتى وصل إلى المدينة ، فليتنظر أسواقها ، وليتخير أى أطعمتها أحل وأطهر وأجود وأكثر بركة .

فليأتكم برزق منه وليتلطف ، أى : فليأتكم بما يسد جوعكم من ذلك الأزكى طعاما ، فيكون الضمير فى « منه » للطعام الأزكى .

وبصح أن يكون للدراهم المضروبة المعبر عنها بورككم ، أى : فليأتكم بدلا منها بطعام تأكلونه ، وليتلطف ، أى : وليتكلف اللطف فى الاستخفاء ، والدقة فى استعمال الخيل حال دخوله وخروجه من المشيئة ، حتى لا يعرفه أحد من أهلها .

« ولا يشعرون بكم أحدا ، أى : ولا يفعلون فعلا يؤدي إلى معرفة أحد من أهل المدينة بنا .

وقوله : « لأنهم إن يظهروا عليكم يرموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا ، تعليل للأمر والنهي السابقين .

أى : قولوا لمن تختارونه لشراء طعامكم من المدينة : عليه أن يتخير أذكى الطعام ، وعليه كذلك أن لا يخبر أحدا بأمركم من أهل المدينة ، لأنهم « إن يظهروا عليكم ، أى : يطلعوا عليكم . أو يظفروا بكم .

وأصل معنى ظهر . أى : صار على ظهر الأرض . ولما كان ما عليها مشاهدا متمكنا منه ، استعمل نارة في الإطلاع ، ونارة في الظفر والغلبة ، وعدى بعلى .

« يرموكم ، أى إن يعرفوا مكانكم ، يرموكم بالحجارة حتى تموتوا » أو يعيدوكم في ملتهم ، الباطلة التي نجاكم الله - تعالى - منها .

« ولن تفلحوا إذا أبدا : أى : وإن عدتم إليها بعد إذ نجاكم الله - تعالى - منها » وعصمكم من أتباعها « فلي تفلحوا إذا أبدا ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .

وهكذا نجد هاتين الآيتين تصوران لنا بأسلوب مؤثر بليغ « حال الفتية وهم يقناجون فيها بينهم ، بعد أن استيقظوا من رقادم الطويل . وزام في تناجيهم - بعد أن تركوا الحديث عن المدة التي لبثوها في نومهم - زام حذرين خائفين ، ولا يدرون أن الأعوام قد كرت . وأن عجلة الزمن قد دارت ، وأن أجيالا قد تعاقبت . وأن مدينتهم التي يعرفونها قد تغيرت معالمها : وأن أعداءهم الكافرين قد زالت دولتهم

ثم نمضي السورة الكريمة لتحديثنا عن مشهد آخر من أحوال هؤلاء الفتية . مشهد تنجلي فيه قدرة الله - تعالى - على أبلغ وجوهه ، كما تنجلي فيه حكمته ووحدايته ، استمع إلى القرآن الكريم وهو يحدثنا عن ذلك بقوله :

« وَكَذَلِكَ نُعَذِّرُنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، أَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ، إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ، فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ، قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (٢١) » .

فقوله - سبحانه - : « وَكَذَلِكَ نُعَذِّرُنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ، بَيَانٌ لِلْحِكْمَةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا أَطْلَعَ اللَّهُ - تَعَالَى - النَّاسَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْفِتْيَةِ .

قال الآلوسى ما ملخصه : وأصل العثور السقوط للوجه يقال : عثر عثورا وعثارا إذا سقط لوجهه ، ومنه قولهم في المثل : الجواد لا يكاد يعثر . ثم يجوز به في الإطلاع على أمر من غير طلبه .

وقال بعضهم : لما كان كل عائر ينظر إلى موضع عثرته ، ورد العثور بمعنى الإطلاع والعرفان ، فهو في ذلك مجاز مشهور بعلاقة السببية . ومفعول « أعثرنا » محذوف لقصد العموم ، أى : « وَكَذَلِكَ أَطْلَعْنَا النَّاسَ عَلَيْهِمْ ، (١) » .

والمعنى : وكما أنهم تلك المدة الطويلة ، وبعنيتهم هذا البعث الخاص ، أطلعنا الناس عليهم ليعلم هؤلاء الناس عن طريق المعاينة والمشاهدة ، أن وعد الله ، بالبعث « حق » ، وصدق ، وليعلموا كذلك أن الساعة ، أى القيامة ، آتية لا ريب فيها ، ولا شك في حصولها ، فإن من شاهد أهل الكهف ، وعرف أحوالهم ، أيقن بأن من كان قادراً على إناستهم تلك المدة الطويلة ثم على بعثهم بعد ذلك . فهو قادر على إعادة الحياة إلى الموتى ، وعلى بعث الناس يوم القيامة الحساب والجزاء .

وقد ذكروا في كيفية إطلاع الناس عليهم روايات ملخصة : أن زميلهم الذي أرسلوه بالدراهم إلى السوق ليشتري لهم طعاما عندما وصل إلى سوق المدينة ، عمد إلى رجل من يبيع الطعام ، فدفع إليه ما معه من نقود لكي يأخذ في مقابلها طعاما ، فلما رأى البائع النقود أنكرها - لأنها مصنوعة منذ زمن بعيد - وأخذ يطلع عليها بقية التجار ، فقالوا له : أين وجدت هذه الدراهم ؟ فقال لهم : بعث بها أمس شيئا من النمر ، وأنا من أهل هذه المدينة ، وقد خرجت أنا وزملائي إلى الكهف خوفا من إيذاء المشركين لنا فأخذوه إلى ملكهم وقصوا عليه قصته . فسر الملك به ، وذهب معه إلى الكهف ليرى بقية زملائه فلما رآهم سلم عليهم . . ثم أماتهم الله - تعالى - ، (١) .

ثم بين - سبحانه - ما كان من أمرهم بعد وفاتهم واختلاف الناس في شأنهم ، فقال : إذ يتنازعون بينهم أمرهم ، فقالوا : ابنوا عليهم بانيانا ربهم أعلم بهم . .

والظرف ، إذ ، متعلق بمحذوف تقديره : اذكروا ويتنازعون من التنازع بمعنى الاختصاص والاختلاف ، والضمير في ، أمرهم ، يعود إلى الفتية ،

والمعنى : لقد قصصنا عليك - أيها الرسول الكريم - قصة هؤلاء الفتية . وبيننا لك أحوالهم عند رقادهم ، وبعد بعثهم من نومهم ، وبعد الاعتثار عليهم ، وكيف أن الذين عثروا عليهم صاروا يتنازعون في شأنهم . فمنهم من يقول لهم وجدوا في زمن كذا ، ومنهم من يقول إنهم مكثوا في كهفهم كذا سنة ، ومنهم من يقول نبى حولهم بانيانا صفته كذا .

ويجوز أن يكون الضمير في ، أمرهم ، يعود إلى الذين أطلعهم الله على الفتية ، فيكون المعنى : اذكر وقت تنازع هؤلاء الذين عثروا على الفتية ونحاصمهم فيما بينهم ، حيث إن بعضهم كان مؤمنا . وبعضهم كان كافرا ، وبعضهم كان يؤمن ببعث الأرواح والأجساد ، وبعضهم كان يؤمن ببعث الأجساد فقط .

وقوله - تعالى - : « فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ، تفسير للمتنازع فيه ،
وبيان لما قاله بعض الذين اطلعوا على أمر الفتية .

أى اختلف الذين عثروا على الفتية فقال بعضهم : ابنوا على باب كهفهم
بنيانا . حتى لا يصل الناس إليهم ، وحتى تصونهم من الأذى .

وقوله - تعالى - : « ربهم أعلم بهم » ، يحتمل أنه حكاية لكلام طائفة من
المتنازعين في شأن أصحاب الكهف ، وقد قالوه ليقطعوا النزاع في شأنهم ،
وليفوضوا أمرهم إلى الله - تعالى - .

ويحتمل أن يكون من كلام الله - تعالى - ردا للخائضين في شأنهم .
أى : اتركوا أيها المتنازعون ما اهتم فيه من تنازع ، فإنى أعلم منكم بحال
أصحاب الكهف .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكرمة بقوله : « قال الذين غلبوا على أمرهم
لنتخذن عليهم مسجدا » .

أى : أن الذين اعثرهم الله على أصحاب الكهف قال بعضهم : ابنوا على
هؤلاء الفتية بنيانا يستمرم .. وقال الذين غلبوا على أمرهم ، وهم أصحاب الكلمة
النافذة ، والرأى المطاع ، لنتخذن على هؤلاء الفتية مسجدا ، أى : معبدا
تبركا بهم .

قال الألوسى : واستدل بالآية على جواز البناء على قبور للصلحاء . واتخاذ
مسجد عليها ، وجواز الصلاة في ذلك ، ومن ذكر ذلك الشهاب الحماجى فى
حواشيه على البيضاوى . وهو قول باطل عاطل ، فاسد كاسد . فقد روى أحمد
وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه ، عن ابن عباس قال : قال رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد
والسرج .

وزاد مسلم : « ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم
مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك » .

وروى الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم -
قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ... » (١) .
ثم حكمت السورة بعد ذلك ما أثير من جدل حول عدد أصحاب الكهف
وأمرت النبى - صلى الله عليه وسلم - أن بكل ذلك إلى الله - تعالى - وحده ،
فقال - سبحانه - :

« سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ،
رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ
مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ، فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ، وَلَا تَسْتَفْتِ
فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) » .

أى : سيختلف - الناس - فى عدة أصحاب الكهف - أيها الرسول الكريم -
فن الناس من سيقول إن عدتهم ثلاثة رابعهم كلبهم ، ومنهم من يقول : إنهم
خمس سادسهم كلبهم .

فالضمير فى قوله « سيقولون » ، وفى الفعلين بعده . يعود لأولئك الخاضعين
فى قصة أصحاب الكهف وفى عددهم ، على عهد النبى - صلى الله عليه وسلم - .
قال الجمل : قيل إنما أتمى بالمسين فى هذا لأن الكلام طيا وإدماجا تقديره
فإذا أجبته عن سؤالهم عن قصة أهل الكهف ، فسلمهم عن عددهم فإنهم
سيقولون ثلاثة .

ولم يأت بها فى بقية الأفعال ، لأنها معطوفة على ما فيه مسين فأعطيت حكمه
من الاستقبال ، (٢) .

وقال صاحب الكشاف . فإن قلت : لماذا جاء بسين الاستقبال فى الأول
دون الآخرين ؟

(١) راجع تفسير الألوسى ج ١٥ ص ٢٣٧ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٦ .

قلت : فيه وجوهان : أن تدخل الآخرين في حكم السين ، كما تقول : قد أكرم وأنعم .

تريد معنى التوقع في الغماين جميعا وأن تريد بفعل معفو الاستقبال الذي هو صالح له ، (١) .

وقوله ، ثلاثة . خير لمبتدأ محذوف ، أى : هم ثلاثة .

وقوله . تعالى - : رجما بالغيب ، رد على القائلين بأنهم ثلاثة رابعهم كلهم ، وعلى القائلين بأنهم خمسة سادسهم كلهم .

وأصل الرجم : الرمي بالحجارة ، والمراد به هنا : القول بالظن والحدس والتخمين بدون دليل أو برهان .

قال صاحب الكشاف قوله : رجما بالغيب ، أى : رميا بالخبر الخفى وإتيانا به . كقوله : ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ، أى : يأتون به . أو وضع الرجم موضع الظن فكأنه قيل ظننا بالغيب . لأنهم أكثر وأن يقولوا : رجم بالظن . مكان قولهم : ظن . حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين . ألا ترى إلى قول زهير : وما هو عنها بالحديث المرحم .. أى : المظنون ، (٢) .

وقوله : رجما ، منصوب بفعل مقدر . والباء في « بالغيب » ، للتعديده .

أى : يرمون رميا بالخبر الغائب عنهم ، والذي لإطلاع لهم على حقيقة ، شأنهم في ذلك شأن من يرمى بالحجارة التى لا تصيب المرمى المقصود .

ثم حكى - سبحانه - القول الذى هو أقرب الأقوال إلى الصواب فقال : « ويقولون سبعة وثامنهم كلهم » .

أى : وبعض الناس - وهم المؤمنون - يقولون إن عدد أصحاب الكهف سبعة أفراد وثامنهم كلهم ،

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٧٨ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٣ ص ٤٧٨ .

قال ابن كثير : - يقول - تعالى - يخبرنا عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف ، فحكى ثلاثة أقوال ، فدل على أنه لا قائل برابع . ولما ضعف القولين الأولين بقوله : « رجما بالغيب » .

أى : قول بلا علم ، كمن يرى إلى مكان لا يعرفه ، فإنه لا يكاد يصيب ، وإذا أصاب فبلا قصد . ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله : « وثامنهم كلبهم » دل على صحته ، وأنه هو الواقع في نفس الأمر ، (١) .

وقال الألوسى ما ملخصه : والجملة الواقعة بعد العدد في قوله - تعالى - : « ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم » ، في موضع الصفة له ، والواو الداخلة على الجملة الواقعة صفة المنسكرة ، كما تدخل على الواقعة حالا عن المعرفة في قولك : جاءني رجل ومعه آخر ، ومررت بزيد وفي يده سيف ، ومنه قوله - تعالى - : « وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم » .

وقادتها تؤكد لصوق الصفة بالموصوف ، والدلالة على أن إتصافه بها أمر ثابت مستقر وهي التي أذنت هنا بأن قائل ما ذكر ، قالوه عن ثبات علم . وطما نينة نفس ، ولم يرجوا بالظن كما رجم غيرهم فهو الحق دون القولين الأولين . . . ، (٢) .

ثم أمر الله - تعالى - النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يخبر الخائضين في عدة أصحاب الكهف ، بما يقطع التنازع الذي دار بينهم فقال : « قل ربي أعلم بعدتهم » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لمن خاءوا في عدة أصحاب الكهف : ربي - عز وجل - أقرى علما منكم بعدتهم - أيها المتنازعون ، فإنكم إن علمتم عنهم شيئا علما ظنيا . فإن علم ربي بهم هو علم تفصيلي يقيني لا يفادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

ثم أثبت - سبحانه - علم عددهم لقليل من الناس فقال : « وما يعلمهم إلا قليل » ، أى : ما يعلم أصحاب الكهف إلا عدد قليل من الناس .

ولا تعارض بين هذه الجملة وبين سابقتهما ، لأن علم هذا العدد القابل من الناس بعدة أصحاب الكهف ، هو علم إجمالى ظنى . . . أما علم الله - تعالى - فهو علم تفصيلى يقينى شامل لجميع الأزمنة .

فضلا عن أن علم هؤلاء القلة من الناس بعدة أصحاب الكهف ، تابع من لإعلام الله - تعالى - لهم عن طريق الوحي كالرسول - صلى الله عليه وسلم - أو من يطلعه الرسول - صلى الله عليه وسلم - على عدتهم .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : أنا من أولئك القليل كانوا سبعة . ثم ذكر أسماءهم .

ثم نهى الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - عن الجدال المتعمق فى شأنهم ، كما نهاه عن استفتاء أحد فى أمرهم فقال - تعالى - فلا تمار فيهم إلا مرأا ظاهرا . ولا تستفت فيهم منهم أحدا .

والمرأ : هو الجدال والحاجة فيما فيه مريية ، أى : تردد . مأخوذ من مريت الناقة إذا كررت مسح ضرعها للحلب .

والاستفتاء : طلب الفتيا من الغير . والفاء فى قوله : فلا تمار ، للتفريع .

أى : إذا كان الشأن كما أخبرناك عن حال أصحاب الكهف ، فلا تجادل فى أمرهم أحدا من الخائضين فيه إلا جدالا واضحا لا يتجاوز حدود ما قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - ولا تطلب الفتيا فى شأنهم من أحد ، لأن ما قصصناه عليك من خبرهم ، يغنيك عن السؤال . وعن طلب الإيضاح من أهل الكتاب أو من غيرهم .

ثم نهى الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - عن الإخبار عن فعل شئ فى المستقبل إلا بعد تقديم مشيئة الله - عز وجل - فقال :

« وَلَا تَقُولَنَّ لَشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ،

وَإِذْ كُنْ رَبُّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤) ،

قال القرطبي : قال العلماء : عاتب الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والفتية وذى القرنين : غدا أخبركم بجواب أسئلتكم ، ولم يستثن في ذلك .

فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يوما حتى شق ذلك عليه ، وأرجف الكفار به ، فنزلت عليه هذه السورة مفرجة . وأمر في هذه الآية ألا يقول في أمر من الأمور إنى أفعل غدا كذا وكذا ، إلا أن يعلى ذلك بمشيئة الله - عز وجل - حتى لا يكون محققا لحكم الخبر ، فإنه إذا قال : لأفعلن ذلك ولم يفعل كان كاذبا ، وإذا قال ، لأفعلن ذلك - إن شاء الله - خرج عن أن يكون محققا للمخبر عنه ، (١) .

والمراد بالغد : ما يستقبل من الزمان ، ويدخل فيه اليوم الذى يلى اليوم الذى أنت فيه دخولا أوليا . وغير عما يستقبل من الزمان بالعد للنأ كيد .

أى : ولا تقولان - أيها الرسول الكريم - لأجل شئ تعزم على فعله فى المستقبل : إنى فاعل ذلك الشئ غدا ، إلا وأنت مقرر قوالك هذا بمشيئة الله - تعالى - وإذنه ، بأن تقول : سأفعل هذا الشئ غدا بإذن الله ومشيئته ، فإن كل حركة من حركاتك - ومن حركات غيرك - مرهونة بمشيئة الله - تعالى - وإرادته ، وما يتعلق بمستقبلك ومستقبل غيرك من شئون ، هو فى علم الله - تعالى - وحده .

وليس المقصود من الآية المكرمة نهى الإنسان عن التزمكير فى أمر مستقبله وإنما المقصود نهيه عن الجزم بما سيقع فى المستقبل ، لأن ما سيقع عليه عند الله - تعالى - وحده .

والعقل من الناس هو الذي يباشر الأسباب التي شرعها الله - تعالى - .
 سواء أكانت هذه الأسباب تتعلق بالماضي أم بالحاضر أم بالمستقبل ، ثم يقرن
 كل ذلك بمشيئة الله - تعالى - وإرادته . فلا يقول : سأفعل غدا كذا وكذا .
 لأنني أعددت العدة لذلك ، وإنما يقول : سأفعل غدا كذا وكذا إذا شاء الله
 - تعالى - ذلك وأراد ، وأن يوقن بأن إرادة الله فوق إرادته ، وتديره
 - سبحانه - فوق كل تدبير .

وكم من أمور أعد الإنسان لها أسبابها التي تؤدي إلى تضائها
 جاءت إرادة الله - تعالى - فغيرت ما أعدده ذلك الإنسان ، لأنه لم يستشعر عند
 إعداد هذه الأسباب أن إرادة الله - تعالى - فوق إرادته ، وأنه - سبحانه -
 القادر على خرق هذه الأسباب ، وخرق ما تؤدي إليه ، ولأنه لم يقل عندما يريد
 فعله في المستقبل : إن شاء الله .

وقوله : « وأذكر ربك إذا نسيت » تأكيد لما قبله أي : لا نقول أن أفعل
 غدا إلا ملتبسا بقول : إن شاء الله ، وأذكر ربك - سبحانه - إذا نسيت
 تعليق القول بالمشيئة ، أي : عند تذكرك بأنك لم تفرق قولك بمشيئة الله ،
 فات بها .

قال الألوسي : قوله « وأذكر ربك » أي : مشيئة ربك ، فالكلام على
 حذف مضاف ، إذا نسيت أي : إذا فرط منك نسيان ذلك ثم تذكرته .
 فهو أمر بالتدراك عند التذكير . . . (١) .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : للمفسرين في تفسير قوله - تعالى - :
 « وأذكر ربك إذا نسيت » قولان :

الأول . أن هذه الجملة مرتبطة ومتعلقة بما قبلها : والماضي : إياك إن قلت .

سأفعل غدا كذا ونسيت أن تقول إن شاء الله ، ثم تذكرت بعد ذلك فقل :
إن شاء الله .

أى : أذكر ربك معلقا على مشيئته ما تقول أنك ستفعله غدا إذا
تذكرت بعد النسيان .

وهذا القول هو الظاهر ، لأنه يدل عليه ما قبله ، وهو قوله - تعالى - :
« ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله » ، وهو قول الجمهور .
الثانى : أن هذه الجملة لا تعلق لها بما قبلها ، وأن المعنى : إذا وقع منك
النسيان لشيء ما ذكر ربك ، لأن النسيان من الشيطان . كما قال - تعالى - عن
فتى موسى . . . وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكر . . . (١) .

وعلى هذا القول يكون المراد بالذكر : التسبيح والإستغفار . وعلى الأول
المراد به أن تقول : إن شاء الله أو ما يشبه ذلك .

والمقصود من هذه الآية الكريمة بيان أن تعليق الأمور بمشيئة الله
- تعالى - هو الذى يجب أن يفعل ، لأنه - تعالى - لا يقع شيء إلا بمشيئته فإذا
نسى المسلم ثم تذكر ، فإنه يقول : إن شاء الله ، أخرج بذلك من عهدة
عدم التعليق بالمشيئة ، وبذلك يكون قد فوض أمره إلى الله - تعالى - .

وليس المقصود بها التحال من بين قد وقعت ، لأن تداركها قد فات
بالانفصال ، ولأن الإستثناء المتأخر لا أثر له ولا تحل به اليمين .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « وقل عسى أن يهدين ربى
لأقرب من هذا رشدا » : أى : قدم - أيها الرسول الكريم - مشيئة ربك عند
إرادة فعل شيء ، وات بها إذا نسيت ذلك عند التذكير ، وقل عسى أن يوفقنى
ربى ويهدينى ويدلنى على شئ أقرب فى الهداية والإرشاد من هذا الذى قصصته
عليكم من أمر أصحاب الكهف .

قال صاحب الكشف : وقوله : « لا قرب من هذا . . . » اسم الإشارة يعود إلى نيا أصحاب الكهف : ومعناه : لعل الله يؤتينا من البينات والحجج على أنى نبي صادق ، ما هو أعظم في الدلالة وأقرب رشدا من نيا أصحاب الكهف .
وقد فعل - سبحانه - ذلك ، حيث آتاه من قصص الأنبياء ، والإخبار بالغيوب ، ما هو أعظم من ذلك وأذل ، (١) .

ثم بين - سبحانه - على وجه البقين ، المدة التى قضاها أصحاب الكهف راقدين فى كهفهم ، فقال - تعالى - :

« وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ، لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أُنْظِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ، مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدٌ (٢٦) » .
أى : أن أصحاب الكهف مكثوا فى كهفهم راقدين ثلاثمائة سنين ، وازدادوا فوق ذلك تسع سنين .

فآلية الكريمة لإخبار منه - سبحانه - عن المدة التى لبثوا هؤلاء الفتية مضروبا على آذانهم .

وقوله : « قل الله أعلم بما لبثوا » ، تقرير وتأكيد ليكون المدة التى لبثوها هى ما سبق إيانا فى الآية السابقة :

فكانه - سبحانه - يقول : هذا هو فصل الخطاب فى المدة التى لبثوها راقدين فى كهفهم ، وقد أعلمك الله - تعالى - بذلك - أيها الرسول الكريم - ، وما أعلمك به فهو الحق الصحيح الذى لا يحوم حوله شك ، فلا تلتفت إلى غيره من أقوال الخائضين فى أمر هؤلاء الفتية ، فإن الله - تعالى - هو الأعلم بحقيقة ذلك .

ويرى بعضهم أن قوله - تعالى - : « ولبثوا في كهفهم ... » حكاية لكلام أهل الكتاب في المدة التي لبثوا أهل الكهف قياما في أهل كهفهم ، وأن قوله « قل الله أعلم بما لبثوا » ، للرد عليهم .

وقد حكى الإمام ابن كثير القولين ، ورجح الأول منهما فقال : هذا خير من الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم ، منذ أن أُرقد لهم الله إلى أن بعثهم واعر عليهم أهل ذلك الزمان . كان مقداره ثلاثمائة سنين وتسع سنين بالهلاليتين وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية ، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين . فلمذا قال بعد الثلاثمائة « وإزدادوا تسعا » .

وقال قتادة في قوله : « ولبثوا في كهفهم ... » ، وهذا قول أهل الكتاب وقد رده الله - تعالى - بقوله : « قل الله أعلم بما لبثوا » .

وفي هذا الذي قاله قتادة نظر ، فإن الذي بأيدي أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة من غير تسع ؛ ولو كان الله - تعالى - قد حكى قولهم لما قال : « وإزدادوا تسعا » ، وظاهر الآية أنه خبر عن الله لا حكاية عنهم ... (١) .

وقوله - تعالى - : « له غيب السموات والأرض » ، تأكيد لاختصاصه - عز وجل - بعلم المدة التي لبثوها ، أي : له - سبحانه - وحده علم ما خفي وغاب من أحوال السموات والأرض ، وأحوال أهلها ، كما قال - تعالى - : « إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء » .

وقوله - سبحانه - : « أبصر به وأسمع » ، صيغة تعجب : أي : ما أبصره وما أسمعته - تعالى - والمراد أنه - سبحانه - لا يخفى عن بصره وسمعه شيء . وجاءت هذه الجملة الكريمة بصيغة التعجب ، للدلالة على أن أمره - تعالى - في الإدراك خارج عما عليه إدراك المبصرين والسماعين . إذ لا يحجب شيء ، ولا يتفاوت عنده لطيف وكثيف ، وصغير وكبير ، وجلي وخفي .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا » .

أى : ليس لأهل السموات ولا لأهل الأرض ولا لغيرهما غير الله - تعالى - نصير ينصرهم ، أو ولي يلى أمرهم . ولا يشرك - سبحانه - فى حكمه أو قضائه أحدا كائننا من كان من خلقه . كما قال - تعالى - « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .

هذا ، وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات مسائل منها .
(ا) مكان الكهف الذى لجأ إليه هؤلاء الفتية ، والزمن الذى ظهر وافيه .
أما مكان الكهف فالعلماء فيه أقوال : من أشهرها أنه كان بالقرب من مدينة تسمى ، أفسوس ، وهى من مدن تركيا الآن ، قالوا إنها تبعد عن مدينة « إزمير » بحوالى أربعين ميلا . وتعرف الآن باسم : « أياز بوك » .
وقيل : إنه كان ببلدة تدعى « أبسس » - بفتح الهمزة وسكون الباء وضم السين - وهذه البلدة من تغور ، طرسوس ، بين مدينة حلب بسوريا ، وبلاد أرمينية وأنطاكية .

وقيل : إنه كان ببلدة تسمى « بترام » بين خليج العقبة وفلسطين . . .
إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة ، التى لا نرى داعيا لذكرها ، لقلة فائدتها .
وأما الزمن الذى ظهر وافيه ، فيرى كثير من المفسرين أنه كان فى القرن الثالث الميلادى فى عهد الإمبراطور الرومانى « دقيانوس » الذى كان يحمل الناس حملا على عبادة الأصنام ، ويمذب من يخالف ذلك .

(ب) العبر والعظات والآحكام التى تؤخذ من هذه القصة . ومن أهمها :

١ - إثبات صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ، حيث أخبر - عن طريق ما أوحاه الله لإياه من قرآن - عن قصة هؤلاء الفتية ، وبين وجه الحق فى شأنهم ورد على ما خاضه الخائضون فى أمرهم « وصدق الله إذ يقول : » نحن نقص عليك نبأهم بالحق . . . » .

٢ - المكشف عن جانب من بلاغه القرآن الكريم في قصصه ، حيث ساق هذه القصة بحملة في الآيات الأربع الأولى منها ثم ساقها مفصلة بعد ذلك تفصيلا حكيميا . وفي ذلك ما فيه من تمكن أحداثها وهداياتها في القلوب .

والرشد العاقل هو الذي ينتفع بهذا الأسلوب القرآني في وعظه وإرشاده .

٣ - بيان أن الإيمان متى استقر في القلوب ، هان كل شيء في سبيله . فهو لاء الفتية آثروا الفرار بدينهم ، على البقاء في أوطانهم ، لكي تسلم لهم عقيدتهم . . . فهم كما قال - سبحانه - في شأنهم : ولهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى .

٤ - بيان أن على المؤمن أن يلجأ إلى الله بالدعاء - لا سيما عند الشدائد والكروب - وأنه متى اتقى الله - تعالى - وأطاعه ، جعل له - سبحانه - من كل ضيق فرجا ، ومن كل هم مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، وصافه من السوء . فهو لاء الفتية عندما لجأوا إلى الكهف ، تضرعوا إلى الله بقولهم : ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا .

فأجاب الله دعاءهم ، حيث ضرب على آذانهم في الكهف سنين عددا ، وجعل الشمس لا تصل إليهم مع أنهم في فجوة من الكهف . وصان أجسادهم من البلى والتعفن بأن قلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وأنام كلهم بعقبة باب الكهف حتى لكانه حارس لهم : وألقى الهيبة عليهم بحيث لو رآهم الرائي لولى منهم فرارا . ولم يلب قلبه رعبا من منظرهم .

وسخر أصحاب النفوذ والقوة للدفاع عنهم . وللتعبير عن تكريمهم لهم بقولهم : ولتتخذن عليهم مسجدا ، .

• - بيان أن التفكير السليم . المصحوب بالنية الطيبة . والعزيمة الصادقة ،

يؤدي إلى الاهتداء إلى الحق ، وأن القلوب النقية الطاهرة تتعاون على الخير والتقوى لا على الإثم والعدوان . وأن نضح الباطل والكشف عن زيفه . . دليل على سلامة اليقين .

فهمؤلاء الفتية اجتمعوا على الحق ، وربط الله على قلوبهم إذا قاموا والوقوف في وجه الباطل ، وهداهم تفكيرهم السليم إلى أن المستحق للعبادة هو ربهم رب السموات والأرض ، وأن من يعبد غيره يكون قد افترى على الله كذبا . . .

وإن اعتزال الكافر . يوصل إلى نشر الرحمة ، والظفر بالسداد والتوفيق . ولذا توأصوا فيما بينهم بقولهم : فأدوا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيئ لكم من أمركم مرفقا ، .

٦ - بيان أن مباشرة الأسباب المشروعة لا تنافي التوكل على الله .

فهمؤلاء الفتية عندما خرجوا من ديارهم ، أخذوا بعض النقود . وبعد بعثهم من رقادم أرسلوا أحدهم إلى المدينة ليحضر لهم طعاما طاهرا حلالا ، وأرصوه باللطيف في أخذه وعطائه وبكتمان أمره وأمرهم حتى لا يعرف الأعداء مكانهم .

وهكذا العقلاء ، لا يمنهم توكلهم على الله - تعالى - من أخذ الحيلة والخذل في كل شئ منهن التي تستدعي ذلك .

٧ - إقامة الأدلة وأعظمها على أن البعث حق . لقد أطلع الله - تعالى - الناس على همؤلاء الفتية ، ليوقنوا بأنه - سبحانه - قادر على إحياء الموتى . . . لأن من يقدر على بعث الرافدين من رقادم بعد مئات السنين ، فهو قادر على إحياء الموتى يوم القيامة .

٨ - بيان أن من الواجب على المؤمن إذا أراد فعل شيء أن يقرن ذلك بمشيئة الله - تعالى - ، لأنه - سبحانه - بيده الأمر كله ، وصدق الله إذ يقول : ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله ، .

عنه بعض العظات والأحكام التي ترشدنا إليها هذه القصة ، وقد ذكرنا جانباً آخر منها خلال تفسيرنا للآيات التي اشتملت عليها ، ومن أراد المزيد فليرجع إلى ما كتبه المفسرون في ذلك (١) .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - بمداومة التلاوة لما أوحاه إليه - سبحانه - ، فإن فيه فصل الخطاب وبالحفاوة بالمؤمنين الصادقين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ؛ وبإعلان كلمة الحق فن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر فقال - تعالى - :

« وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً (٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (٢٨) وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا ، أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِنْ يَسْتَفِيضُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يَحْمِلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاورٍ مِنْ ذَهَبٍ ، وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضراً مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ، متكئين فيها على الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (٣١) » .

(١) راجع تفسير الفخر الرازي ج ٢١ ص ٨١ ، وتفسير القرطبي ج ١٠ ص ٣٥١

وتفسير الألوسي ٢٩ ، وتفسير أضواء البيان ج ٤ ص ١٨ .

قال الإمام الرازي مابليخصه : قوله - تعالى - : « وائل ما أوحى إليك .. » اعلم أن من هذه الآية إلى قصة موسى - عليه السلام - والخضر ، كلام واحد في قصة واحده . وذلك أن أكابر كفار قريش احتجوا وقالوا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن أردت أن تؤمن بك فاطرد هؤلاء الفقراء .. » فنهاه الله عن طردهم لأنه مطلوب فاسد ... ثم إنّه - سبحانه - أمره بالمواظبة على تلاوة كتابه ، وأن لا يلتفت إلى إقتراح المقترحين ، وتعت المتعنتين ... (١) .

وقوله - سبحانه - : « وائل .. » فعل أمر من التلاوة بمعنى القراءة .

أى : « وإليك - أيها الرسول الكريم - أن تواظب وتداوم على قراءة ما أوحيناه إليك من هذا القرآن الكريم ، وأن تتبع إرشاداته وتوجيهاته ، فإن في ذلك ما يهديك إلى الطريق الحق ، وما يغنيك عن السؤال والاستفتاء ، قال - تعالى - : « إن الذين يتلون كتاب الله ، وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، يرجون تجارة لن تبور » ، (٢) .

وصيغة الأمر في قوله - سبحانه - : « وائل .. » لإبقاء الفعل لا لإيجاده ، كما في قوله - تعالى - : « أهدنا الصراط المستقيم » .

و « من » في قوله « من كتاب ربك » بيانية .

وقوله : « لا مبدل لكلماته » ، أى : ليس في هذا الكون أحد في إمكانه أن يغير أو يبدل شيئا من الكلمات التي أوحاه الله - تعالى - إليك - أيها الرسول الكريم - ، لأننا قد تكلمنا بحفظ هذا الكتاب الذي أوحيناه إليك .

قال - تعالى - : « ونمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم » ، (٣) .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٢١ ص ١١٤

(٢) سورة قاطر الآية ٢٩ (٣) سورة الأنعام الآية ١١٥

وقال - سبحانه - ، إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ، (١) .

فالجملة الكريمة وهى قوله - سبحانه - لا مبدل لكلماته ، نفت قدرة أحد على تبديل كلمات الله ، لأن أخبارها صدق ، وأحكامها عدل ، وإنما الذى يقدر على التغيير والتبديل هو الله - تعالى - وحده .

والضمير فى ، كلماته ، يعود على الله - تعالى - ، أو على الكتاب .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : : وإن تجد من دونه ملتحدا : .
وأصل الملتحد : مكان الإلتحاد وهو إفتعال من اللحد بمعنى الميل . ومنه اللحد فى القبر ، لأنه ميل فى الحفر . ومنه قوله - تعالى - : : إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا . . . ، أى : يميلون فى آياتنا .

فالمراد بالملتحد : المكان الذى يميل فيه إلى ملجأ للنجاة .

والمعنى : وداوم أيها الرسول الكريم على تلاوة ما أوحيناه إليك من كتابنا الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأعلم أنك إن خالفت ذلك لن تجد غير الله - تعالى - ملجأ ملجأ إليه ، أو مأوى تأوى إليه ، لكى تنجو مما يريد به بك .

فالجملة الكريمة تذييل قصد به التحذير الشديد .. فى شخص الرسول - صلى الله عليه وسلم - لكل من يقصر فى تلاوة كتاب الله ، أو يحاول التبديل فى ألفاظه ومعانيه .

ثم ساقى السورة الكريمة لونا من الأدب السامى ، والتوجيه العالى ، حيث بينت أن أولى الناس بالرعاية والمجالسة هم المؤمنون الصادقون ، وأمرت النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن يصبر نفسه معهم ، فقال - تعالى - : : وأصبر بنفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا . . . ،

(١) سورة الحجر الآية ٩ .

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات منها : أنها نزلت في أشراف قريش ، حين طلبوا من النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يجلس معهم وحده ، ولا يجالسهم مع ضعفاء أصحابه كبلال وعمار وان سعود ولا يفرد أولئك بمجالس على حدة ، فنهاه الله - تعالى - عن ذلك . . . وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء الفقراء فقال : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه . . . » (١) .

وصبر النفس معناه : حبسها وثبتيها على الشيء . يقال : صبرت فلانا أصبره صبرا ، أى : حبسته .

والغداة : أول النهار . والعشي : آخره .

والمعنى : عليك - أيها الرسول الكريم - أن تحبس نفسك وتعودها على مجالسة أصحابك الذين يدعون ربهم ، أى : يعبدونه ويتقربون إليه بشتى أنواع القربات ، في الصباح والمساء ، ويدأبون على ذلك ، دون أن يريدوا شيئا من وراء هذه العبادة ، سوى رضا الله - تعالى - عنهم ورحمته بهم .

وفي تخصيص الغداة والعشي بالذكر : لإشعار بفضل العبادة فيهما : لأنهما محل الغفلة والاشتغال بالأمور الدنيوية غالبا .

ويصح أن يكون ذكر هذين الوقتين المقصود به مداومة العبادة ، وإلى هذا المعنى أشار الآلوسى بقوله : قوله : « يدعون ربهم بالغداة والعشي ، أى : يعبدونه دائما . وشاع استعمال مثل هذه العبارة للدوام . وهى نظير قولهم : ضرب زيد الظهر والبطن . يريدون به ضرب جميع البدن . وأبقى غير واحد اللفظين على ظاهرهما أى : يعبدونه في طرفي النهار . » (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٤٨ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٢٦٢ .

وقوله : « يريدون وجهه » ، مدح لهم بالإخلاص والبعد عن الرياء والمباهاة فهم لا يتقربون إلى الله - تعالى - بالطاعات من أجل دنيا يصيبونها . أو من أجل إرضاء الناس .

ولأنهم يبتغون بعبادتهم رضا الله - تعالى - وحده ، لا شيئاً آخر من حظوظ الدنيا .

وقوله - سبحانه - : « ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا . . . » ، نهى له صلى الله عليه وسلم - عن الغفلة عنهم ، بعد أمره بحبس نفسه عليهم . والفعل « تعد » بمعنى تصرف . يقال عداه عن الأمر عدوا إذا صرفه عنه وشغله .

أى : أحبس نفسك مع هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه - سبحانه - ، ولا تصرف عينك أنظر عنهم ، وتتجاوزهم إلى غيرهم من الأغنياء ، طمعا في إسلامهم .
فالمراد بإرادة الحياة : الحرص على مجالسة أهل الغنى والجاء حبا في إيمانهم .

وجملة « تريد زينة الحياة الدنيا » ، في موضع الحال من الضمير المضاف إليه في قوله « عيناك » ، وإنما ساغ ذلك لأن المضاف هنا جزء من المضاف إليه .
وقوله - تعالى - « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » ، نهى آخر مؤكدا لما قبله من حبس نفسه - صلى الله عليه وسلم - على هؤلاء المؤمنين الفقراء ، وعدم صرف نظره عنهم إلى غيرهم من المتغطرسين بالأغنياء .

والفرط - بهم الفاء والراء - : تجاوزة الحد ، ونبتذ الحق والصواب ، وإتباع الباطل والضلال .

أى : ولا تطع - أيها الرسول الكريم - في تنحية المؤمنين الفقراء عن

عالمك ، أقوال أولئك الغافلين عن طاعتنا وعبادتنا لاستحوذ الشيطان عليهم ،
والذين اتبعوا أهواءهم فأثروا الضلال على الرشد ، والذين كان أمرهم فرطاً
أى : مخالفاً للحق ، وجاوزاً للصواب ، ومؤدياً للضياع والخسران .

قال ابن جرير - بعد أن ذكر جملة من الأقوال فى معنى قوله - تعالى - :
« فرطاً » : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب : قول من قال معناه : ضياعاً
وهلاكاً . من قولهم : أفرط فلان فى هذا الأمر إفراطاً ، إذا أسرف فيه ،
وتجاوز قدره . وكذلك قوله : « وكان أمره فرطاً » .

معناه : وكان أمر هذا الذى أغفلنا قلبه عن ذكرنا فى الرباء والكبر
واحترار أهل الإيمان سرفاً قد تجاوز حده ، فضيع بذلك الحق وهلك (١) .
فالآية الكريمة تسوق للناس توجيهاً حكيماً فى بيان القيم الحقيقية للناس ؛
وهى أنها تتمثل فى الإيمان والتقوى ، لا فى الغنى والجاه . . .

فالؤمن الصادق فى إيمانه ، الكريم فى أخلاقه . . . هو الذى يحرص على
مخالطة أهل الإيمان والتقوى . ولا يمنع فقره من مجالستهم ، وصاحبهم
ومؤانسهم والتواضع لهم ، والتقدم إليهم بما يسرهم ويشرح صدورهم . . .
ولقد روى النبى - صلى الله عليه وسلم - أصحابه على هذا الخلق الكريم ،
روى الشيخان عن سهل بن سعد الساعدى قال : مر رجل على النبى - صلى الله
عليه وسلم - فقال لرجل عنده جالس : « ما رأيك فى هذا » ؟ فقال : رجل من
أشرف الناس ، هذا والله حرى إن خطب أن يزوج وإن شفع أن يشفع . فسكت
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فقال له - صلى الله عليه وسلم - : « ما رأيك
فى هذا » ؟ فقال : يا رسول الله ، هذا رجل من فقراء المسلمين هذا والله حرى
إن خطب لا يزوج وإن شفع أن لا يشفع ، وإن قال أن لا يسمع لقوله . فقال

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا » (١).

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يجهر بكلمة الحق في وجوه المستكبرين ، فقال : « قل الحق من ربكم فمن شاء ، فليؤمن ومن شاء فليكفر ... »

أى : « قل : أيها الرسول - هؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا ، واتبعوا أهواءهم ، وكان أمرهم فرطاً ، قل لهم : هذا الذى جئتمكم به من قرآن هو الحق من ربكم وخالقكم ... »

فقوله : الحق من ربكم ، خير لمبتدأ محذوف .

أو أن لفظ « الحق » مبتدأ ، والجار والمجرور خبره . أى : الحق الذى جئتمكم به فى هذا القرآن العظيم ، كائن مبدؤه من ربكم ، وليس من أحد سواه .

وليس المراد من قوله « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » التخيير بين الإيمان والكفر ، بل المراد به التهديد والتخويف ، بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك : « إنا أعتدنا للظالمين نارا ... الخ »

أى : قل لهم جئتمكم من ربكم بالحق الذى يجب إتباعه ، فمن شاء أن يؤمن به فليفعل فإن عاقبته الخير والثواب ، ومن شاء أن يكفر به فليكفر فإن عاقبته الخسران والعقاب ، كما بين - سبحانه - ذلك فى قوله :

« إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها » ...

والسرادق : كل ما أحاط بغيره ، كالحائط أو السور الذى يحيط بالبناء ، فيمنع من الوصول إلى ما بداخله .

أى : إنا هيأنا وأعددنا للكافرين بهذا الحق نارا مهولة عظيمة ، أحاط بهم صياجها إحاطة تامة ، بحيث لا يستطيعون الخروج منه ، وإنما هم محصورون بداخله . كما ينحصر الشئ بداخل ما يحيط به من كل جانب .

وقوله : « وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه » ، بش الشراب ، وسامت مرتفقا ، بيان لما ينزل بهم من عذاب عندما يطلبون الغوث عما هم فيه من كرب .

والمهل فى اللغة : يطلق على ما أذيب من جواهر الأرض ، كالحديد ، والرصاص ، والنحاس ، ونحو ذلك كما يطلق - أيضا - على الماء الغليظ كدرى الزيت أى : ما تعكر منه . وقيل . هو نوع من القطران أو السم .

والمرتفق : المتسكأ ، من الارتفاق وهو الاتسكأ على مرفق اليد .

أى : أن هؤلاء الكافرين ، إن يطلبوا الغوث عما هم فيه من كرب وعطش ، يغاثوا بماء كالمهل فى شدة حرارته وبقته وسواده هذا الماء يشوى الوجوه ، أى : يحرقها . . .

« بش الشراب » ، ذلك الماء الذى يغاثون به « وسامت » النار من لا ينزلون به ، ومتسكأ يتكئون عليه .

فألاية الكريمة تصور ما ينزل بهؤلاء الظالمين من عذاب ، تصويرا نرجف من هول الأبدان ، ويدخل الرعب والفرع على النفوس .

قال بعضهم : فإن قيل ، أى إغاثة لهم فى ماء كالمهل مع أنه من أشد العذاب ، وكيف قال - سبحانه - ، « يغاثوا بماء كالمهل » ؟

فالجواب ، أن هذا من أساليب اللغة العربية التى نزل بها القرآن ونظيره من كلام العرب قول عمرو بن معد يكرب

وحيل قد دلفت لها بحيل تحية بينهم ضرب وجيع

أى : لا نعمة لهم إلا الضرب للجميع وإذا كان هؤلاء الظالمون لا يغاثون إلا بماء كالمهل : علم من ذلك أنهم لا إغاثة لهم مطلقا ، (١) .

والمخصوص بالذم فى قوله : « يش الشراب وسامت مرتفقا ، محذوف ، يش الشراب ذاك الماء الذى يغاثون به ، وسامت النار مكانا للارتفاق والانسكاه .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حسن عاقبة المؤمنين فقال : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ، .

أى : إن الذين آمنوا بإيماننا حقا ، وقدموا فى دنياهم الأعمال الصالحات ، اقتضت سنتنا التى لا تتغير ولا تبدل أن نرضى عنهم ، وأن ندخلهم مدخلا كريما ، لا ننا لا نضيع أجر من أحسن عملا .

ثم بين - سبحانه - ما أعد لهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ألوان النعيم فقال : « أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار . . . ولفظ « عدن » بمعنى إقامة لا رحيل بعدها ولا تحول . وأصله من عدن فلان بالمكان . إذ أقام به واستقر فيه .

أى : أولئك الذين عمروا دنياهم بالإيمان والعمل الصالح لهم جنات يقيمون فيها إقامة دائمة ، تجري من تحت مساكنهم الأنهار .

« يحلون فيها من أساور من ذهب ، والأساور : جمع سوار . وهو نوع من الحلى يلبس بزند اليد .

أى : يلبسون فى تلك الجنات أساور من ذهب على سبيل التزين والتكريم ولا مانع من أن يضاف إلى هذه الأساور الذهبية ، أساور أخرى من فضة ، وثالثة من أوأو كما فى قوله - تعالى - : « وحلوا أساور من فضة » ، (٢) .

(١) تفسير أضواء البيان - ج ٤ ص ٩٦

(٢) سورة النهر الآية ٢١

وقوله - سبحانه - : « يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ... » (١).
وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول - صلى الله عليه وسلم - قال :
« تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » .

وقوله « ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق » معطوف على ما قبله .
والسندس : مارق من الحرير واحده سندسة .
والإستبرق : ما غلظ منه وثخن ، واحده إستبرقة .

أى : يتزينون فى الجنات بأساور من ذهب ، ويلبسون فيها ثيابا خضرا
من رقيق الحرير ومن عليظه .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب
وحسنت مرتفقا ، .

والأرائك : جمع أريكه . وهو كل ما يتكأ عليه من سرير أو فراش ،
أى : متكئين فى الجنات على الأرائك شأن المتنعمين المترفين ونعم الثواب ،
ذلك الذى وعدهم الله - تعالى - به وهو الجنة ، وحسنت ، تلك الأرائك فى
الجنات ، مرتفقا ، .

أى : متكأ ومقرا ومجلسا ومسكنا .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد اشتملت على ألوان متعددة من التكريم
والثواب لأولئك المؤمنين الذين عمروا دنياهم بالعمل الصالح .

فقد بشرهم - سبحانه - بجنات عدن ، ثم بشرهم نائيا بأن الأنهار تجري
من تحتهم ثم بشرهم ثالثا بأنهم يحلون فيها من أساور من ذهب ، ثم بشرهم
رابعا بأنهم يلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق ، ثم بشرهم خامسا ،
بأنهم يتكئون فى تلك الجنات على الأرائك .

وفي هذه البشارات ما فيها من الخوض على المسارعة إلى العمل الصالح ،
الذي يرفع درجات المؤمن إلى أعلى عالمين ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ،
والله ذو الفضل العظيم ، نسأل الله - تعالى - أن يرزقنا هذا الفضل ، فهو
أكرم مسئول ، وأعظم مأول .

ثم سافت السورة الكريمة مثلاً للنفس الإنسانية المغرورة المتفاخرة
بزينة الحياة الدنيا ، الجاحدة لنعم الله ... وللنفس الإنسانية المتواضعة ،
المعتزة بعقيدتها السليمة ، الشاكرة لربها ... لكي يكرن في هذا المثل عبرة
وعظة لمن كان له قلب ، فقال - تعالى - :

« واضربْ لَهُمْ مثلاً رجلَيْنِ ، جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ ،
وَحَفَفْنَاهُمَا بِبَخْلِ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً (٣٢) كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا
وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ، فَقَالَ
لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ
جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ
السَّاعَةَ قَائِمَةً ، وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦) » .

والمثل في اللغة : الشبه والنظير ، وهو في عرف القرآن الكريم : الكلام
البلوغ المشتمل على تشبيه بديع .

وضرب المثل : إirاده ، وعبر عن إirاده بالضرب ، لشدة ما يحدث عنه
من التأثير في نفس السامع .

أى : واضرب - أيها الرسول الكريم - مثلاً للمؤمنين الذين يدعون
ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، وللكافرين الذين غرتهم الحياة الدنيا ،
ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة .

قال الألوسي: والمراد بالرجلين: إما رجلان مقدران على ما قيل وضرب المثل لا يقتضى وجودهما. وإما رجلان موجودان وهو المعول عليه. فقيل هما رجلان من بنى إسرائيل أحدهما كافر... والآخر مؤمن.

ثم قال: والمراد ضربهما مثلاً للفریقین المؤمنین والكافرين، لا من حيث أحوالهما المستفادة مما ذكر آنفاً، من أن المؤمنین في الآخرة كذا، وللکافرين فيها كذا، من حيث عصيان الكفرة مع قلوبهم في نعم الله، وطاعة المؤمنین مع مكابذتهم مشاق الفقر، (١).

أى: واضرب لهم مثلاً من حيثية العصيان مع النعمة، والطاعة مع الفقر، حال رجلين: د جعلنا لأحدهما، وهو الكافر، جنتين، أى: بستانين، ولم يعين - سبحانه - مكانهما، لأنه لم يتعلق بهذا التعمين غرض.

ثم بين ما اشتملت عليه هاتان الجنتان من خيرات فقال: «من أعقاب، جمع عقب، والعنبة الحبة منه». والمراد: من كروم متنوعة.

وأوله: «وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً، بيان لما أضيف إلى الجنتين من مناظر تزيدها بهجة وفائدة.

والخف بالشئ: الإحاطة به. يقال: فلان حففه القوم، أى: أحاطوا به، ومنه: قوله - تعالى -: «وترى الملائكة حافين من حول العرش...».

أى: جعلنا لأحد الرجلين، وهو الكافر منهما جنتين من أعقاب، وأحطناهما بنخل ليكون كالخاية النافعة لهما، وجعلنا في وسطهما زرعاً وبذلك تكون الجنتان جائعتين للأفوات والفواكه، مشتملين على ما من شأنه أن يشرح الصدر، ويفيد الناس.

ثم ذكر - سبحانه - ما يزيد من جودة الجنتين. ومن غزارة خيرهما فقال: «كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً، وجرفنا خلالها نهراً».

أى : أن كل واحدة من الجنة ، آتت أكلها ، أى : أعطت ثمارها التى يأكلها الناس من العنب والتمر وغيرهما من صنوف الزرع ، ولم تظلم منه شيئاً ، ولم تنقص من هذا الماء كؤل شيئاً فى سائر السفين ، بل كان أكل كل واحدة منهما وافياً كثيراً فى كل سنة ، على خلاف ما جرت به عادة البساتين ، فإنها فى الغالب تبكثر ثمارها فى أحد الأعوام ونقل فى عام آخر .

وفى التعبير بكلمة « تظلم » بمعنى تنقص وتمنع ، مقابلة بدبعة لحال صاحبهما الذى ظلم نفسه بحدوده لنعم الله - تعالى - وإستكباره فى الأرض .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هاتين الجنةين بما يدل على جمال منظرهما ، وغزارة عطائهما ، وكثرة خيراتها ، وإشتغالها على ما يزيدهما بهجة ومنفعة . .

ثم بين - سبحانه - أن صاحب هاتين الجنةين كانت له أموال أخرى غيرهما فقال : « وكان له ثمر . . » .

قال الآلوسى ما ملخصه : « وكان له ، أى : للأحد المذكور وهو صاحب الجنةين ، ثمر ، أى أنواع أخرى من المال . . . وقرأ ابن عامر وحمة والكسائى . . . دُئْمُر ، بضم التاء والميم . ، وهو جمع ثمار - بكسر التاء - . . . أى : أموال كثيرة من الذهب والفضة والحايوان وغير ذلك ، وبذلك فسرہ ابن عباس وقتادة وغيرهما . . . » (١)

وقوله - سبحانه - : « فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا » ، حكايه لما تفوه به هذا الكافر من ألفاظ تدل على غروره وبطره .

والمحاوره : المراجعة للكلام من جانبين أو أكثر . يقال : محاور القوم ،

إذا تراجدوا الكلام فيما بينهم . ويقال : كلمته فما أحرار إلى جواباً ، أى :
مارد جواباً . . .

والنفر : من ينفر - بضم الفاء - مع الرجل من قومه وعشيرته لقتال
عدوه .

أى : فقال صاحب الجنة لصاحبه المؤمن الشاكر : أنا أكثر منك مالا
وأعز منك عشيرة وحشماً وأعوافاً .

وهذا شأن المطموسين المغرورين ، تزيدهم شهوات الدنيا وزينتها . . .
بطراً وفساداً فى الأرض . .

وما أصدق قول قتادة - رضى الله عنه - : ذلك - والله - أمنية الفاجر :
كثرة المال وعزة النفس ، ثم إنتقل صاحب الجنة من غروره هذا إلى غرور
أشد : حكاة القرآن فى قوله : ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال : ما أظن
أن تبيد هذه أبداً . وما أظن الساعة ، قائمة ، ولئن رددت إلى ربي لأجدن
خيراً منها منقلباً . .

أى : أن هذا الكافر لم يكتب بتطاوله على صاحبه المؤمن ، بل سار به
نحو جنته حتى دخلها وهو ظالم لنفسه بسبب كفره وجحوده وغروره .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : فلم أفرد الجنة بعد التثنية ؟ قلت :
معناه ودخل ما هو جنته ، ماله جنة غيرها : يعنى أنه لا نصيب له فى الجنة التى
وعدها الله للمؤمنين ، فما ملكه فى الدنيا هو جنته لا غير ، ولم يقصد الجنة
ولا واحدة منهما .

وقوله : وهو ظالم لنفسه ، أى : وهو معجب بما أوتى مفتخر به ، كافر
لنعمة ربه ، معرض بذلك نفسه لخطأ الله ، وهو أخش الظالم . . . (١) .

وقوله : . قال ما أظن أن تبید هذه أبداً ، أى : قال هذا الكافر لصاحبه :
ما أظن أن هذه الجنة تبنى أو تمهلك أبداً .

يقال : باد الشيء يبيد ويبيداً ، إذا هلك وفنى .

ثم ختم هذا الكافر محاورته لصاحبه بقوله : . وما أظن الساعة قائمة .
أى : كائنة ومتحققة . فهو قد أنكر اليعث وما يترتب عليه من حساب بعد
إنكاره لفناء جنته ثم أكد كلامه بجملة قسمية فقال : . ولئن رددت إلى ربى ،
أى : والله لئن رددت إلى ربى على سبيل الفرض والتقدير كما أخبرتنى يا صاحبي
بأن هناك بعثاً وحساباً ، لأجدن خيراً منها ، أى : من هذه الجنة . منقلباً ،
أى : مرجعاً وعاقبه . اسم مكان من الانقلاب بمعنى الرجوع والانصراف
عن الشيء إلى غيره .

وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - : . أفرايت الذى كفر بآياتنا وقال
لأوتين مالا وولداً . .

وقوله - سبحانه - : . وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن
بمُعذِّبين . .

والمندبر لحال صاحب الجنتين يراه ، - أولاً - قد زعم أن مدار التفاضل
هو الثروة والعشيرة ، ويراه - ثانياً - قد بنى حياته على الغرور والبطور ،
وإعتقاد الخلود لزينة الحياة الدنيا . ويراه - ثالثاً - قد أنكر البعث والحساب ،
والثواب والعقاب .

ويراه - رابعاً - قد نوى أن غناه فى الدنيا سيكون معه مثله فى الآخرة :

قال صاحب الكشف : وأخبر عن نفسه بالشك فى بيدودة جنة ، أطول
أمله ، واستيلاء الخرص عليه ، وتمادى غفلته ، وإغتراره بالمهارة ، وإطراحه
النظر فى عواقب أمثاله ، وترك أكثر الأغنياء من المسلمين ، وإن لم يطلقوا
يمثل هذا السنتهم ، فإن السنة أحوالهم ناضقة به ، مفادية عليه .

وأقسم على أنه إن رد إلى ربه - على سبيل الفرض والتقدير - أيجدن في الآخرة خيراً من جنته في الدنيا ، تطمعا وتمنيا على الله . . (١) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله الرجل المؤمن لصاحب الجنتين ، الذي نطق بأخس ، وأجر الفجور ، فقال - تعالى - :

« قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَسَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتِ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُوْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاءُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) » .

أى : قال الرجل الفقير المؤمن ، فى رده على صاحبه الجاحد المغرور ، منكرا عليه كفره قال له على سبيل المحاوره والمجاوبه : يا هذا وأكفرت ، بالله الذى د خلقك ، بقدرته د من تراب . .

أى : خلق أباك الأول من تراب ، كما قال : د إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، (٢) .

د ثم من نطفة ، أى : خلق أباك آدم من تراب ، ثم أوجدك أنت من نطفة عن طريق التناسل والمباشرة بين الذكر والأنثى .

د ثم سواك رجلا ، أى : ثم صيرك إنسانا كاملا د ذا صورة جميلة ، وهيئة حسنة . كما قال - سبحانه - : د لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . .

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٤٨٤ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٥٨

: والاستغفم - ام في قوله : : د اكفرت . . . ، الإنكار والاستبعاد ، لأن خلق الله - تعالى - له من تراب ثم من نطفة ، ثم تسويته لإياه رجلا ، يقتضى منه الإيمان بهذا الخالق العظيم ، وإخلاص العبادة له ، وشكره على نعمائه .

قالوا : ولا يستلزم قول صاحب الجنةين قبل ذلك : : د واثن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها من قبلى .

إنه كان مؤمنا ، لأنه قال ذلك على سبيل الفرض والتقدير ، لا على سبيل الاعتقاد واليقين ، بدليل تردده في إمكان قيام الساعة ، ولأن اعترافه بوجود الله - تعالى - لا يستلزم الإيمان الحق ، فالكفار كانوا يعترفون بأن الله - تعالى - هو الخالق للسموات والأرض ، ومع هذا يشركون معه في العبادة آلهة أخرى .

وجاء التعبير بحرف د ثم ، في الآية ، للإشارة إلى أطوار خلق الإنسان التي فصلها - سبحانه - في آيات أخرى ، منها قوله - تعالى - : : د ولقد خلقنا الإنسان من صلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقه ، فخلقنا العلقه مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، (١) .

ثم يعلن الرجل الصالح موقفه بشجاعة ووضوح ، فيقول لصاحبه صاحب الجنةين : : د لسكننا هو الله ربى ، ولا أشرك بربى أحدا .

أى : إن كنت أنت با هذا قد كفرت بالله الذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ، فإنى لست بكافر ، ولسكنى أنا مؤمن ، اعترف له بالعبادة والطاعة وأقول : هو الله - تعالى - وحده ربى ، ولا أشرك معه أحدا من خلقه لا فى الربوبية ، ولا فى الألوهية ، ولا فى الذات ولا فى الصفات .

وقوله - سبحانه - في هذه الآية : **لكننا** . . . ، أصله : **لكن أنا** ، أى : **لكن أنا أقول هو الله ربى** . فحذفت همزة **أنا** ، وأدغمت نون **لكن** ، فى نون ، **نا** ، بعد حذف الهمزة .

وجهور القراء يقرءون فى الوصل **لكن** ، بدون ألف بعد النون المشددة وقرأ أبو عامر فى الوصل **لكننا** ، بالألف . أما فى حالة الوقف فقد إتفق الجميع على إثبات الألف .

قال صاحب الكشاف : قوله : **لكننا هو الله ربى** ، أصله : **لكن أنا** ، فحذفت الهمزة ، وألقيت حركاتها على نون **لكن** ، فنلاقت النونان فكان الإدغام ونحوه قول القائل :

وترمينى بالطرف أى أنت مذنب وتقاينى ، **لكن إياك لا ألقى**
أى : **لكن أنا لا ألقىك** .

و هو ، ضمير الشأن : أى : والشأن أن الله ربى : والجملة خبر أنا . والراجع منها إليه ياء الضمير .

فإن قلت : هو **استدراك** لماذا ؟ قلت : لقوله **أكفرت** . . . ، قال لأخيه أنت كافر بالله ، **لكنى** مؤمن موحد ، كما تقول : زيد غائب **لكن** عمرًا حاضر ، (١)

ثم أرشده إلى ما كان يجب عليه أن يقوله عند دخوله جنته فقال :
ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله

قال الامام ابن كثير : هذا تخفيض وحث على ذلك . أى : هلا إذ أعجبتك جنتك حين دخلتها ونظرت إليها ، حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك وقلت **ما شاء الله لا قوة إلا بالله** ، ولهذا قال بعض السلف : من أعجبه شيء من حاله أو ولده أو ماله ، فليقل : ما شاء

الله لا قوة إلا بالله . . وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة . وقد روى فيه حديث مرفوع . . . فمن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فيرى فيه آفة دوى الموت (٤) .

وقال الآلوسى : وقوله : ما شاء الله ، أى : الأمر ما شاء الله ، أو ما شاء الله - تعالى - كان ، على أن ، ما ، موصولة مرفوعة المحل . إما على أنها خير مبتدأ محذوف . أو على أنها مبتدأ محذوف الخبر . . . وأيما كان فالمراد تحضبه على الاعتراف بأن جنته وما فيها بمشيئة الله - تعالى - إن شاء أبقاها وإن شاء أبادها ، (٥) .

وبعد أن حضه على الشكر لله - تعالى - . رد على افتخاره وغروره بقوله - كما حكى القرآن عنه - : . إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً . فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك .

أى : إن ترنى - أيها المغرور - أنا أقل منك فى المال والولد . فإنى أرجو الله الذى لا يعجزه شئ ، أن يرزقنى ما هو خير من جنتك فى الدنيا والآخرة . ، ويرسل عليها حسباً نأ من السماء . أى : عذاباً من جهة السماء كالصواعق والسموم وغيرها مما يشاء الله - تعالى - لإرساله عليها من المهلكات التى تذرهما قاعاً صاففاً .

قال صاحب الكشف : والحسبان مصدر كالفقران والبطلان بمعنى الحساب . أى : ويرسل عليها مقداراً قدره الله وحسبه ، وهو الحكم بتخريبها . ، فتصبح ، بعد اخضرارها ونضارتها ضعيداً ، أى : أرضاً ذلقاءً أى : جرداء ملساء لا نبات فيها ، ولا يشبت عليها قدم .

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٥٤ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٢٧٩ .

والمراد أنها نصير عديمة النفع من كل شيء حتى من المشى عليها . يقال : مكان زاق ، أى : دحض ، وهو فى الأصل مصدر زلقت رجله نزلت زلقا ، ومعناه : الزلل فى المشى لو حل ونحوه ،

• أو يصبح ماؤها غورا ، أى : غائرا ذاهبا فى الأرض . فالغور مصدر وصف به على سبيل المبالغة وهو بمعنى الفاعل . يقال : غار الماء يغور غورا : أى : سفلى فى الأرض وذهب فيها .

ومنه قوله - تعالى - : « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا ، فمن يأتكم بماء من » .

• فلن تستطيع له طلبا ، أى : فلن تستطيع أن تحصل عليه أو تطلبه بآية حيلة من الحيل . لأنه لا يقدر على الاتيان بهذا الماء الغائر إلا الله - عز وجل - .

وإلى هنا نجد أن الرجل الملو من قد رد على صاحبه الكافر ، بما يذكره بمشيئة . وبما يرجعه إلى الأدب الذى يجب أن يتحلى به مع خالقه ورازقه ، وبما يحذره من سوء عاقبة بطره .

• وهكذا الإيمان الحق ، يجعل المؤمن يعز ببقيدته ، ويتجه إلى الله وحده الذى نعموا له الجاه ، ويرجو منه وحده ما هو خير من بساين الدنيا وزينتها .

ثم يختم - سبحانه - هذه القصة ببيان العاقبة السيئة التى حلت بذلك الرجل الجاحد المفرور صاحب الجنتين فيقول .

« وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ ، فَأَصْبَحَ يُقَابُ كَفْبَهُ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) » .

وقوله - سبحانه - : , وأحيط بشمره , معطوف على , مقدر - مذوف
لدلالة السياق والسباق عليه .

وأصل الإحاطة مأخوذة من إحاطة العدو بعدوه من جميع جوانبه
لإهلاكه وإستئصاله .

والمعنى : فحدث ما توقعه الرجل الصالح من إرسال الحسابان على بستان
صاحبه الجاحد المغرور , وأحيط بشمره بأن هلكت أمواله ونماره كلها .
وجاء الفعل , أحيط , مبنيا للمجهول , الإشمار بأن فاعله متيقن وهو
العذاب الذي أرسله الله - تعالى - أي : وأحاط العذاب بجهته .

وقوله : , فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها , , تصوير بديع لما إعتراه
من غم وهم وحسرة وندامة . وتقايب اليدين عبارة عن ضرب إحداها على
الأخرى , أو يبدى ظهرهما ثم بطنهما ويفعل ذلك مرارا , وإيما كان ففعله
هذا كفاية عن الحسرة الشديدة , والندم العظيم .

أي : وكانت نتيجة جحود صاحب الجنة لنعم ربه , أن أهلكت أمواله
وأبديت كلها . فصار يقلب كفيه ظمرا لبطن أسفا وندما , على ما أنفق في عمارتها
وتزيينها من أموال كثيرة ضاعت هباء , ومن جهد كبير ذهب سدى .

وهي , أي الجنة التي أنفق فيها ما أنفق , خاوية على عروشها , أي :
ساقطة ومتهمة على دعائها وعلى سقوفها .

وأصل الخواء السقوط والهدم . يقال : خوى البيت إذا سقط . كما يطلق
على الخلاء من الشيء . يقال : خوى بطن فلان من الطعام أي : خلا منه ,
وخوت الدار إذا خلت من سكانها .

والعروش جمع عرش , وهو سقف البيت .

والمقصود أن الجنة بجميع ما إشتهلت عليه , صارت حطاما وهشا بما تذروه

الرياح ,

وجملة : ، ويقول باليتنى لم أشرك برى أحدا ، معطوفة على جملة
و يقلب كفيه .. ،

أى : صار يقلب كفيه حسرة وندامة لهلاك جنته ويقول زيادة فى الحسرة
والندامة : يا ليتنى لاتبعت نصيحة صاحبي فلم أشرك مع ربي - سبحانه - أحدا
فى العبادة أو الطاعة .

وهكذا حال أكثر الناس ، يذكرون الله - تعالى - عند الشدائد والمحن ،
وينسونه عند السراء والعافية .

والمتدبر لهذه الآية الكريمة يراها قد صورت فجعة الرجل الخاكد فى
جنته تصويرا واقعا بديعا .

فقد جرت عادة الإنسان أنه إذا نزل به ما يدهشه ويقول له . . أن يهجز عن
النطق فى أول وهله . فإذا ما أفاق من دمعته بدأ فى النطق والكلام .

وهذا ما حدث من ذلك الرجل - كما صورته "قرآن الكريم" - فإنه - عند
ما رأى جنته وقد تحطمت أخذ يقاب كفيه حسرة وندامة دون أن ينطق ، ثم
بعد أن أفاق من صدمته جعل يقول : يا ليتنى لم أشرك برى أحدا .

فباله من تصور بديع ، يدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى -
ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان عظيم قدرته ونفاذ إرادته فقال :
، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا هنالك الولاية
لله الحق ، هو خير ثوابا وخير عقبا .

أى : ولم تكن لهذا الجاحد المفلور بعد أن خوت جنته على عروشها ،
عشيرة أو أعوان ينصرونه ، أو يدفعون عنه ما حل به ، وإنما القادر على
ذلك هو الله - تعالى - وحده وما كان هذا الرجل الذى جحد نعم ربه منتصرا
لأنه - سبحانه - قد حجب عنه كل وسيلة تؤدى إلى نصره وعونه ، بسبب
إيثاره الغنى على الرشد ، والكفر على الإيمان .

فآية السكريمة تبين بجلاء ووضوح ، عجز كل قوة عن نصرة ذلك الرجل
المخذول سوى قوة الله - عز وجل - ، وعجز ذلك الرجل في نفسه عن رد
إنتقام الله - تعالى - منه .

وقوله - سبحانه - : « هنالك الولاية لله الحق . . . » ، تقرير وتأكيـد
للآية السابقة . ولفظ هنالك ظرف مكان .

وكلمة ، الولاية ، قرأها الجمهور بفتح الواو ، بمعنى الموالاتة والصلة
والنصرة كما قرأ الجمهور كلمة ، الحق ، بالجر على أنها نعت للفظ الجلالة .

فيكون المعنى : في ذلك المقام وتلك الحال تكون الولاية - أى الموالاتة
وإصلة - من كل الناس ، لله - تعالى - وحده إذ الكافر عند ما يرى العذاب
يعترف برحمانية الله - تعالى - كما قال - سبحانه - « فلما رأوا بأسنا قالوا
آمنّا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما
رأوا بأسنا . » (١)

ويجوز أن يكون المعنى : في ذلك المقام وتلك الحال تكون الولاية أى
الموالاتة لله - تعالى - وحده ، فيؤلى المؤمنون برحمته ومغفرته وينصرون على
أعدائهم ، كما قال - سبحانه - « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن
الكافرين لا مولى لهم » (٢)

وقرأ حمزة والكسائي : « الولاية ، بكسر الواو ، بمعنى الملك والسلطان
كما قرأ أبو عمرو والكسائي لفظ ، الحق ، بالرفع على أنه نعت للولاية

فيكون المعنى : في ذلك المقام تكون الولاية الحق ، والسلطان الحق ،
لله رب العالمين ، كما قال - سبحانه - : الملك يومئذ الحق للرحمن ، وكان يوماً
على الكافرين عسيراً ، (٣)

قال بعض العلماء : وقوله : هنالك ، يرى بعضهم أنها متعلق بما بعده ،
والوقف تام على قوله : وما كان منتصرا ، .

ويرى آخرون أنه متعلق بما قبله .

فعلى القول الأول يكون الظرف : هنالك ، عامله ما بعده . أى : الولاية
كائنة لله هنالك .

وعلى القول الثانى فالعامل فى الظرف اسم الفاعل الذى هو : منتصرا ، .
أى : لم يكن إنتصاره واقعا هنالك (١)

وقوله - سبحانه - : هو خير ثوابا وخير عقبا ، أى : هو - عز وجل -
خير إجابة وإعطاء لأولياته ، وخير عاقبة لمن تاب وآمن وعمل صالحا
ثم إهتدى ، .

وعاقبة الأمر : آخره وما يصير إليه منها . و : ثوابا . و : عقبا ،
منصوبان على التمييز ، بعد صيغة التفضيل - خير ، التى حذفت منها الهمزة
تخفيفا لكثرة الاستعمال كما قال ابن مالك - رحمه الله - :

وغالبا أغنام خير وشر عن قولهم أخير منه وأشر

وبذلك نرى أن هذه القصة التى ضربها - تعالى - مثلا للاختيار والاشترار
قد بينت لنا بأسلوب بليغ أخاذ ، صور عاقبة الجاحدين المفرورين ؛ وحسن
عاقبة الشاكرين المتواضعين ، كما بينت لنا الآثار الطيبة التى تترتب على الإيمان
والعمل الصالح ، والآثار السيئة التى يقضى إليها المكفر وسوء العمل كما بينت
لنا المتفرد بالولاية والقدرة هو الله - عز وجل - ، فلا قوة إلا توتة ، ولا
نصر إلا نصره ، ولا مستحق للعبادة أحد سواه ، ولا ثواب أفضل من ثوابه
ولا عاقبة لأولياته خير من العاقبة التى يقدرها لهم ، وصدق - سبحانه - حيث
يقول : : هنالك الولاية لله الحق ، هو خير ثوابا وخير عقبا ، .

ثم تنتقل السورة الكريمة من ضرب المثل الجزئى الشخصى ، إلى ضرب

مثال آخر عام كلى ، فبينت أن الحياة الدنيا في قصرها وذهاب زينتها . . .
كتلك الجنة التي أصبحت حطاما ، بعد إخصرارها وكثرة ثمرها ، كما بينت أن
هناك زينة فانية ، وأن هنالك أعمالا صالحة باقية . قال - تعالى - :

« واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به
نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل
شيء مقتدرا (٤٥) المال والبئون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات
الصالحات خيرٌ عند ربك ثوابا وخيرٌ أملا (٤٦) » .

قال الإمام الرازي : اعلم أن المقصود : اضرب لهم مثلا آخر يدل على
حقارة الدنيا ، وقلة بقائها . والكلام متصل بما تقدم من قصة المشركين
المتكبرين على فقراء المؤمنين . . . (١)

والمعنى . واذكر لهم - أيها الرسول الكريم - ما يشبه هذه الحياة الدنيا
في حسنها ونضارتها ، ثم في سرعة زوال هذا الحسن والنضارة ، لكي لا يركنوا
لها ، ولا يجعلوها أكبر همهم ، ومنتهى آمالهم . . .

وقوله : « كما أنزلناه من السماء . . » ، بيان للمثل الذي شبه الله - تعالى -
به الحياة الدنيا أي : مثلها في ازدهارها ثم في زوال هذا الازدهار ، كهيئة أو
كصفة ماء أنزلناه بقدرتنا من السماء ، في الوقت الذي تريد إنزاله فيه :
« فاختلط به نبات الأرض ، والاختلاط والخلط : امتزاج شئين فأكثر
بعضهما ببعض .

أي : كما أنزلناه من السماء ، فاختلط وامتزج بهذا الماء نبات الأرض ،
فارتوى منه ، ودار قويا بهيجنا يعجب الناظرين لإياديه .

وفي التعبير بقرينة : « فاختلط به نبات الأرض » ، ذور قوله : فاختلط بنبات

إشارة إلى كثرة الماء النازل من السماء ، وإلى أنه السبب الأسامي في ظهور هذا النبات ، وفي بلوغه قوته ونضارته .

وقوله : « فأصبح هشيبا تذروه الرياح » بيان لما صار إليه هذا النبات من يبوسه وتفتته ، بعد إخضراره وشدته وحسنه .

قال القرطبي ما ملخصه : « هشيبا ، أى متكسرا متفتتا ، يعنى بانقطاع الماء عنه ، فحذف ذلك إيجازا للدلالة الكلام عليه . والهشم : كسر الشيء . اليابس . والهشم من النبات : اليابس المتكسر . . . ورجل هشيم : ضعيف البدن .

و « تذروه الرياح » أى تفرقه وتنسفه . . . يقال : ذرت الريح الشيء . تذروه ذروا ، إذا طارت به وأذهمته ، (١) .

أى : فأصبح النبات بعد إخضراره ، يابساً متفتتا ، تفرقه الرياح وتنسفه وتذهب به حيث شاءت وكيف شاءت

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد شبهت حال الدنيا في حسنها وجمال رونقها ، ثم سرعة زوالها وفنائها بعد ذلك ، بحال النبات الذى نزل عليه الماء فأخضر واستوى على سوقه ، ثم صار بعد ذلك يابساً متفتتا تذهب به الرياح حيث شاءت .

والتعبير بالفاء في قوله - سبحانه - « فأختلط فأصبح . . » يزيد الأسلوب القرآنى جمالا وبلاغة ، لأن فاء التعقيب هنا تدل على قصر المدة التى استمر فيها النبات نضرا جميلا ، ثم صار هشيبا تذروه الرياح .

وهكذا الحياة تبدو للمتأملين بها ، جميلة عزيزة ، ولكنها سرعان ما تفارقهم ويفارقونها ، حيث ينزل بهم الموت فيجعل آمالهم تحت التراب .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله ، « وكان الله على كل شيء مقتدرا ، أى :

وكان الله - تعالى - وما زال - على كل شيء من الأشياء التي من جملتها الإنشاء والإفناء ؛ كامل القدرة ، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .

وقد ذكر - سبحانه - ما يشبه هذه الآية في سور كثيرة ، ومن ذلك قواه - تعالى - : إنما مثل الحياة لدينا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أناهما أمرنا ليلة أنهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ،^(١)

ثم بين - سبحانه - القيمة الحقيقية للمال والبنين فقال : المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، .

والمال : اسم لكل ما يتموله الإنسان ويتملكه من النقود والعقار والحرف والأنعام ... الخ والبنون : جمع ابن .

والزينة : مصدر . والمراد بها هنا ، ما في الشيء من محاسن ترغب الإنسان فيه .

أى : المال والبنون زينة يتزين بها الإنسان في هذه الحياة الدنيا ، ويتباهى بها على غيره .

ولنمنا كأننا كذلك ، لأن في المال - كما يقول القرطبي - جمالا ونفعا ، وفي البنين قوة ودفعا ...

قال الألوسي : وتقديم المال على البنين - مع كونهم أعز ماله عنداكثر الناس لعراقتهم فيما يبط به من الزينة والامداد وغير ذلك . . ولأنه زينه بدونهم من غير عكس فإن من له بنون بغير مال فهو في أضيق حال . .^(٢) وفي التعبير بقوله - سبحانه - زينة ، بيان بدیع . وتعير دقيق لحقيقتهم ،

(١) سورة يونس الآية ٢٤

(٢) تفسير الآل

فهما زينة وليسا قيمة ، فلا يصح أن توزن بهما أقدار الناس ، وإنما توزن أقدار الناس بالابمان والعمل الصالح ، كما قال - تعالى - : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ولذا جاء التعقيب منه - سبحانه - بقوله ، « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » .

أى : المال والبنون زينة يتزين ويتفاخر بها كثير من الناس في هذه الحياة الدنيا ، وإذا كان الأمر كذلك في عرف كثير منهم . فإن الأقوال الطيبة ، والأعمال الحسنة ، هي الباقيات الصالحات ، التى تبقى ثمارها للإنسان ، وتكون عند الله - تعالى - ، خير ، من الأموال والأولاد ، ثوابا ، وجزاء وأجرا . وخير أملا ، حيث ينال بها صاحبها في الآخرة ما كان يؤمله ويرجوه في الدنيا من فوز بنعيم الجنة ، أما المال والبنون فمكثيرا عما يكونان فتنة . .

وقد ساق الامام ابن كثير جملة من الآثار في تعيين المراد بالباقيات الصالحات فقال : قال ابن عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف والباقيات الصالحات ، : الصلوات الخمس .

وقال عطاء بن أنى رباح وسعيد بن جبير عن ابن عباس : « والباقيات الصالحات ، : سبحانه الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ... » (١) .

ويبدو لنا أن قوله - تعالى - : « والباقيات الصالحات ، لفظ عام ، يشمل كل قول ، أو عمل يرضى الله - عز وجل - . ويدخل في ذلك دخولا أوليا : الصلوات الخمس وغيرها مما ذكره المفسرون من أقوال .

وسمى - سبحانه - ما يرضيه . من أقول ، وأعمال بالباقيات الصالحات لأنها باقية لصاحبها غير زائلة ولا فانية ، بخلاف زينة الحياة الدنيا فإنها زائلة فانية . .

قال الامام ابن جرير - رحمه الله - وأولى الأقوال بالصواب قول من قال : من جمع أعمال الخير . . لأن ذلك كله من الصالحات التي تبقى لصاحبها في الآخرة ، وعليها يجازى ويثاب . وإن الله - عز وجل - لم يخص من قوله « والباقيات الصالحات خير . . » بعضا دين بعض في كتاب ، ولا ينجز عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (١)

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أهوال يوم القيامة ، وذلك اليوم الذي تنفع فيه الباقيات الصالحات ، وليس الأموال ولا الأولاد ، فقال - تعالى - :

« وَيَوْمَ نَسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاكُمْ فَلَمْ تُنَادِرُوا مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا ، لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، بَلْ زَعَمْتُمْ أَنَّ لَنَا نَجْمًا لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨) وَوَضَعَ الْكِتَابُ فَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) » .

والظرف في قوله : - تعالى - ، ويوم نسير الجبال ، منصوب بفعل محذوف تقديره : « اذكر ، . »

والمراد بتفسير الجبال : اقتلاعها من أماكنها ، وضيورتها كالعين المنفوش .

أي : واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ، أهوال يوم القيامة ، يوم

تقتلع الجبال من أماكنها ، ونذهب بها حيث شئنا ، ونجعلها في الجو كالسحاب ، كما قال - سبحانه - : وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب

وكما قال - عز وجل - : وسيرت الجبال فكافات سرايا ، .
وقوله : وترى الأرض بارزة ... ، بيان لحالة ثانية من أهوال يوم القيامة .

أى : وترى - أيها المخاطب - الأرض ظاهرة الاعمى دون أن يسترها شىء من جبل ، أو شجر ، أو بئيان .
يقال : برز الشىء بروزا ، أى : خرج إلى البراز - بفتح الباء - أى : الفضاء وظهر بعد الخفاء .

قال - تعالى - : فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، .

ثم بين - سبحانه - حالة ثالثة من أهوال يوم القيامة فقال : ، وحشرناهم فلم تغادر منهم أحدا ، .

أى : وحشرنا الخلائق جميعا ، بأن جمعناهم فى المكان المحدد لجمعهم ، دون أن نترك منهم أحدا ، بل أخرجناهم جميعا من قبورهم لنحاسبهم على أعمالهم .
والفعل : تغادر ، من المغادرة بمعنى الترك ، ومنه الخذر لأنه ترك الوفاء والأمانة وسعى الغدير من الماء غديرا ، لأن السيل ذهب وتركه .

ثم تذكر السورة الكريمة حالة رابعة من أهوال يوم القيامة ، هى حالة العرض بعد حالة الجمع فتقول : وعرضوا على ربك صفافا

أى : وأحضروا جميعا إلى ربك مصفوفين فى صف واحد أو فى صفوف متعددة ، ليقضى فيهم - سبحانه - بقضائه العادل .

قال الآلوسى : أخرج ابن منده فى التوحيد عن معاذ بن جبل ، أن النبى

- صلى الله عليه وسلم - قال : إن الله - تعالى - ينادى يوم القيامة ، يا عبادى : أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين . وأسرع الخاسرين . أحضروا حجبتكم ، ويسروا جوابكم . فإنكم مسئولون بحسابون يا ملائكة أقيموا عبادى صفوفا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب .

وفى الحديث الصحيح : يجمع الله - تعالى - الأولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفا يسمعهم ، وينفذهم البصر (١) .

وقوله - سبحانه - : « لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة . . . » مقول أقول محذوف ، وجمله « كما خلقناكم » نعت لمصدر محذوف .

والمعنى : ونقول لمنكرى البعث والحساب بعد عرضهم علينا على سبيل التوبيخ والتأنيب : لقد جئتمونا - أيها المكذبون - مجيئا كائننا كجيتكم عند خلقنا إياكم أول مرة . أى حفاة عراة لا مال معكم ولا ولد .

وعبر - سبحانه - بالماضى فى قوله : « لقد جئتمونا . . » لتحقيق الوقوع وتنزيله منزلة الواقع بالفعل .

وشبيه بهذه الآية قرله - تعالى - : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء . لقد تقطع بينكم وصل عنكم ما كنتم تزعمون (٢) » .

ثم ختم - سبحانه - الآية بالانتقال من توبيخهم هذا إلى توبيخ أشد وأقسى ، فقال : « بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا ، » .

أى : بل زعمتم أيها المكذبون بالبعث - أن لن نجعل لكم زمنا أو مكانا نجازيكم فيه على أعمالكم ، وأنكرتم إنكاراً مصحوباً بقدم أننا لا نبعث من يموت .

(١) تفسير الألوسى ج ١٥ ص ٢٨٩ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٩٤

قال - تعالى - : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت . بلى وعدنا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

ثم صور - سبحانه - أحوال المجرمين عندما يرون مصيرهم السيء فقال - تعالى - : ووضع الكتاب ، فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون : يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، . . .

والمراد بالكتاب : جاسسه ، فيشمل جميع الصحف التي كتبت فيها أعمال المكلفين في دار الدنيا .

أى : وأحضرت صحائف أعمال العباد ، ووضعت في ميزانهم ، فترى ، أيها المخاطب - ، « المجرمين ، كافة ، مشفقين ، خائفين ، مما فيه ، من جرائم وذنوب (ويقولون) على سبيل التفجع والتحسر عند معاينتهم لشغل ميزان سيئاتهم ، وخفة ميزان حسناتهم .

« يا ويلتنا ، . والويله : الهلاك وحلول الشر والقيح والحسرة ، وهو - أى لفظ الويلة - : مصدر لا فعل له من لفظه .

وهذا النداء على التشبيه بشخص يطلب إقباله .

أى : ويقولون بأسف وندامة وحسرة : يا هلا كنا أقبل فهذا أو ان إقبالك . ثم يقولون على سبيل التعجب والدهشة من دقة ما أشتمل عليه هذا الكتاب : « مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ؟

أى : أى شيء ثبت لهذا الكتاب ، حيث نراه لا يترك معصية صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها علينا ، وسجلها في صحف أعمالنا .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على شمول علمه . ونفاذ قدرته وكمال عدله ، فقال : « ووجدوا ما عملوا حاضرا ، ولا يظلم أحد شيء » .

أى : ووجدوا ما عملوه فى الدنيا حاضرا ومسطورا فى صحائف أعمالهم ، ولا يظلم ربك أحدا من العباد ، وإنما يجازى كل إنسان على حسب ما يستحقه من ثواب أو عقاب كما قال - سبحانه - : ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين ، (١) .

وكما قال - عز وجل - : إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لده أجر عظيم ، (٢) .

قال الإمام ابن كثير وقوله : « ولا يظلم ربك أحدا ، أى : فيحكم بين عبادِهِ فى أعمالهم جميعها ، ولا يظلم أحدا من خلقه ، بل يفخر ويصفح ويرحم ، ويعذب من يشاء ، بقدرته وحكمته وعدله ... »

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد أخبرنا همام بن يحيى ، عن القاسم بن عبد الواحد المكي ، عن عبد الله بن محمد ابن عقيل إنه سمع جابر بن عبد الله يقول : بلغنى حديث عن رجل سمعه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاشتريت بهيراً ثم شددت عليه رحلي ، فسرت إليه شهراً ، حتى قدمت عليه الشام ، فإذا عبد الله بن أنيس ، فقلت للبواب : قل له جابر على الباب ، فقال ابن عبد الله ؟ فقلت : نعم ، فخرج يظاً ثوبه ، فاعتنقني واعتنقته ، فقلت : حديث بلغنى عنك أنك سمعته من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في القصاص تخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه ، فقال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : يحشر الله - عز وجل - الناس يوم القيامة ، عراة عُقر لا بهمئماً ، أى : ليس معهم شيء ، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد ، كما يسمعه من قرب : أنا الملك ، أنا الديان ، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار ، وله عند أحد من أهل الجنة حق ، حتى أقصه منه ، أى : حتى أمكنه من أخذ القصاص ، وهو أن يفعل به مثل فعله ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن

يدخل الجنة ، وله عند رجل من أهل النار حق ، حتى أقصه منه ، حتى اللطمة .
قال : قلنا كيف وإنما أنى الله - عز وجل - عراة غرلا بهما ؟ قال بالحسنات
والسيئات (١) .

وبعد أن وضح - سبحانه - من أهوال الحشر ما تنشعق له النفوس ، وتهتز له
القلوب ، أتبع ذلك بالنهي عن إتخاذ إبليس وذريته أولياء ، وبيان جانب
من المصير الآليم الذي ينتظر المجرمين وشركاهم ، فقال - تعالى - :

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ
الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ
لَكُمْ عَدُوٌّ ، بئسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠) مَا أَشْهَدْتُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ ، وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ تَضَدًّا (٥١)
وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ، فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (٥٢) وَرَأَى الْمَجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا
وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣) » .

فقلوه - سبحانه - : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ، فَسَجَدُوا إِلَّا
لِإِبْلِيسَ (٥٠)) .

تذكير لبني آدم بالعداوة القديمة بين أبيهم آدم وبين إبليس وذريته ..

والمقصود بهذا التذكير تحذيرهم من وساوسه ، وحضهم على مخافته ،
كما قال - تعالى - : (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ
لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) (٢) .

والملائكة : جمع ملك . وهم - كما وصفهم الله تعالى - : (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)^(١) .

وآدم : اسم لأبي البشر . قيل لأنه لاسم عبراني مشتق من أدمه بمعنى التراب ،
والسجود لغة : التذلل والخضوع . وخص في الشرع بوضع الجبهة على
الأرض بقصد العبادة .

ولإبليس : اسم مشتق من الإبلّاس ، وهو الحزن الناشئ عن شدة اليأس
وفعله إبّلس ، والراجع أذا ، اسم أعجمي . ومنعة من الصرف للعلمية والعجمية .

والمعنى . واذكر . أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ، وقت أن قلنا للملائكة
أسجدوا لآدم ، سجود تحية واحترام وتوقير ، لا سجود عبادة وطاعة لأن
ذلك لا يكون إلا لله رب العالمين . فامثلوا أمرنا وسجدوا جميعاً ، كما قال
- تعالى - : (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) .

وجاء العطف في قوله (فسجدوا) بالفاء المفيدة للتعقيب ، للإشارة إلى أن
الملائكة قد بادروا بالامتثال بدون تردد ، استجابة لأمر خالقهم - عز وجل - .

وقوله - تعالى - : إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، كونه من
الجن لا من الملائكة إذ من المقرر في علم الأصول ؛ أن الفاء من الحروف
الدالة على التعليل ، كما في قولهم ، سرق فقطعت يده ،

أي : قطعت يده من أجل سرقة . . .

والمعنى : امثل الملائكة جميعاً أمرنا فسجدوا لآدم ، إلا إبليس فإنه أبي
واستكبر ولم يسجد ، لأنه كان من الجن ولم يكن من الملائكة (فسق عن أمر
ربه) أي . نخرج بذلك عن طاعتنا ، واستحق لعنتنا وغضبتنا .

وأصل الفسق : الخروج عن الطاعة مأخوذ من قو لهم : فسق الرطب فسوقاً إذا خرج عن قشره وهو أعم من الكفر ، فيقال للعاصي فاسق ، وللكافر فاسق .

قال بعض العلماء ما ملخصه : والخلاف في كون إبليس من الملائكة أولاً مشهور عند أهل العلم .

وحجة من قال إنه ليس منهم أمران : أحدهما : عصمة الملائكة من ارتكاب الكفر الذي ارتكبه إبليس ، فهم - كما قال الله عنهم - : (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) .

والثاني : أن الله - تعالى - صرح في هذه الآية الكريمة بأنه كان الجن والجن غير الملائكة . قالوا : وهو نص قرآني في محل النزاع .

واحتج من قال بأنه منهم ، بما تذكر في الآيات القرآنية من قوله : (فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس) قالوا : فأخراجه بالاستثناء . من لفظ الملائكة دليل على أنه منهم ، والظواهر إذا كثرت صارت بمنزلة النص ومن المعلوم أن الأصل في الاستثناء الاتصال لا الإنقطاع . .

قالوا : ولا حجة لمن خالفنا في قوله - تعالى - (كان من الجن) ، لأن الجن قبيله من الملائكة ، خلقوا وبين الملائكة من نار السموم . .

وأظهر الحجج في المسألة . حجة من قال : إنه ليس من الملائكة ، لأن قوله - تعالى - (إلا إبليس كان من الجن . . .) هو أظهر شيء في الموضوع من نصوص الوحى ، والعلم عند الله - تعالى - (١) .

ومن المفسرين الذين يدل كلامهم على أن إبليس لم يكن من الملائكة . الإمام ابن كثير ، فقد قال - رحمه الله - قوله : (فسجدوا إلا إبليس كان من الجن) أى : خانه أصله ، فإنه خلق من مارج من نار ، وأصل خلق الملائكة

من نور ، كما ثبت في صحيح مسلم ، عن عائشة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » . فعند الحاجة نضح كل إناء بما فيه ، وخانه الطبع عند الحاجة ، وذلك أنه قد توسم بأفعال الملائكة ، ونشبه بهم ، رتعد وتنسك فلماذا دخل في خطاهم ، وخص بالمخالفة .

ونبه - تعالى - ها هنا على أنه من الجن ، أى : « أنه خلق من نار .. » (١) . ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالإشارة والتوبيخ والتعجيب من يتبع خطوات إبليس وذريته فقال : « أفنتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو ، بنس للظالمين بدلا » .

أى : أفبعد أن ظهر لكم - يا بنى آدم - ما ظهر من فسوق إبليس عن أمر ربه ، تتخذونه وذريته الذين نهجوا نهجه ، أولياء ، وأصفياء من دوني ، فتطيعونهم بدل أن تطيعوني ، والحال أن إبليس وذريته لكم عدو ؟

لا شك أن من يفعل ذلك منكم يكون قد استبدل الذى هو أدنى بالنذى هو خير ، وآثر الغى على الرشد ، والضلالة على الهداية ، والفسوق على الإيمان !!

فإنجزة الكريمة تستبعد من كل عاقل ، أن يطيع إبليس وذريته ، بعد أن تبين له عداوتهم إياه ، وحرصهم على إبقائه في موارد الهلكة والسوء ... وقوله : « وذريته » يدل على أن لإبليس ذرية ، إلا أن الطريقة التى بواسطتها كانت له الذرية ، لم يرد بها نص صحيح يعتمد عليه ، لذا وجب تفويض علمها إلى - الله تعالى - .

قال الألوسى عند تفسيره لهذه الآية : والظاهر أن المراد من الذرية الأولاد

(١) تفسير ابن كثير ٥ ص ١٦٣ .

(٧ - سورة الكهف)

فتكون الآية دالة على أن له أولادا ، وبذلك قال جماعة وعن قتادة أنه قال : إنه ينكح وينسل كما ينسل بنو آدم .

ثم قال الألوسي : ولا يلزمنا أن نعلم كيفية ولادته ، فكثير من الأشياء مجهول الكيفية عندنا ، ونقول به ، (١) .

وقوله - تعالى - : «بئس للظالمين بدلا» حكم منه - سبحانه - سوء التفكير والمصر على المتخذين لإبليس وذريته أولياء من دونه - تعالى - وبئس فعل يفيد الذم . والبديل : عن الشيء .

أى بئس للظالمين ، الواضعين للشيء فى غير موضعه ، ما فعلوه من تركهم طاعة الله - تعالى - وأخذهم فى مقابل ذلك طاعة إبليس وذريته .

والمخصوص بالذم محذوف دل عليه المقام والتقدير : بئس البديل والتعويض عن طاعة الله - تعالى - طاعة إبليس وذريته .

ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال علمه وقدرته ، وعلى عجز وجهالة المعبودين من دونه ، فقال - تعالى - : ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم .

والضمير فى قوله ، ما أشهدتهم ، يعود إلى إبليس وذريته ، والأشهاد : بمعنى الإحضار والاعلام .

أى : ما أشهدت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ، لأنى خلقتهما دون أن أستعين فى خلقهما بأحد ، أو لأنى خلقتهما قبل خلقهم ، ولا خلق أنفسهم ، أى : ولا أشهدت بعضهم خلق بعض ، لأنى لا أستعين بأحد حين أخلق ما أشاء ، ولا أستشير أحدا حين أقدر ما أشاء .

وما دام الأمر كذلك فكيف تتخذونهم أولياء وشركاء من دونى وأنا الخالق لكل شيء والقاهر فوق كل شيء ؟

فالجلمة الكريمة استئناف مسوق لبيان كمال علمه وقدرته - سبحانه - ،
ولبيان عدم استحقاق إبليس وذريته للاتخاذ المذكور في أنفسهم ، بعد بيان
المواقع والصوراف التي تمنع وتصرف عن اتخاذهم أو إياها ، من خباثة أصلهم ،
وفسوقهم عن أمر ربهم .

وهذا المعنى الذي صرحت به الآية الكريمة من تفرد الله - تعالى - بالخلق
والعلم والقدرة . قد جاء في آيات أخرى منها قوله - تعالى - : « هذا خلق الله
فأروني ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون في ضلال مبين » (١) .

وقوله - سبحانه - : « وما كنت متخذ المضلين عضدا ، مؤكدة لما قبله من
تفرده - سبحانه - بالخلق والقدرة والعلم .

والعضد - بفتح العين وضم الدال - في الأصل ، يطلق على العضد المعروف
ما بين المرفق إلى الكتف . ويستعار للمعين والناصر فيقال : فلان عضدى ،
أى : نصيرى .

ومنه قوله - تعالى - لنبيه موسى - عليه السلام - « سنشد عضدك بأخيك ،
أى : سنقويك ونعينك بأخيك هارون . وذلك لأن اليد قوامها العضد ، فإذا
فقدته أصابها العجز .

أى : « وما كنت متخذ المضلين عن سبيلى أعوانا وأنصاراً في شأن من
شئونى » وخص - سبحانه - المضلين بالذكر ، زيادة في ذمهم وتوبيخهم ،
وتقرباً لأمثالهم ، لأنه - عز وجل - ليس له أعوان ولا أنصار فيما يفعله
لا من المضلين ولا من المهتدين .

ولم يقل - سبحانه - « وما كنت متخذهم .. بالإضمار ، كما قال : « وما أشهدتهم »
بل أظهر في مقام الإضمار ، لتسجيل الضلال عليهم ، حتى ينصرف عنهم كل
عاقل ، وللتنبية على أن الضالين المضلين لا تصح الاستعانة بهم .

(١) - سورة لقمان الآية ١١ .

ولقد حكى الله - تعالى - عن نبيه موسى - عليه السلام - برأيه من
المجرمين فقال : « قال رب بما أنعمت على فلان أكون ظهيراً للمجرمين ، »^(١)
والظهير : الناصر والمعين لغيره .

ثم سافت السورة الكريمة مشهداً من مشاهد القيامة - يكشف عن سوء
المصير الذى ينتظر الشركاء وينتظر المجرمين . فقال - تعالى - : « ويوم يقول
نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ، ، ، ، » .

أى : واذكر - أيها العاقل - يوم يقول الله - تعالى - للمجرمين والكافرين
على سبيل التوبيخ والتقريع : أيها الكافرون ، نادوا شركائى الذين زعمتم أنهم
ينفعدونكم ويشفعون لكم فى هذا الموقف العصيب فدعوهم ، أى : فاطاعوا
أمر خالفهم ، ودعوا شركاءهم لئكى يستغيثوا بهم ، فلم يستجيبوا لهم ، أى :
فلم يجدوا منهم أدنى استجابة فضلاً عن النفع أو العون .

وقوله : « وجعلنا بينهم موبقاً ، أى : وجعلنا بين الداعين والمدعوين
مهاكاً يشتركون فيه جميعاً وهو جهنم .

فالموبق : اسم مكان من موبق وموبقاً - كواثب ونوبا - أو موبق وموبقاً
كفروح فرحاً - إذا هلك . ويقال فلان أوبقته ذنوبه : أى أهلكته . ومنه
قوله - تعالى - : « أر يوبقن بما كسبوا : أى يهلكن . ومنه الحديث الشريف
« كل يغدو فموبق نفسه - أى مهاكها - ومنه أيضاً قوله - صلى الله عليه وسلم -
« اجتنبوا السبع الموبقات ، أى : المهاكات .

وقيل : الموبق اسم واد فى جهنم فرق الله به بينهم ، أى بين الداعين
والمدعوين .

وقيل : كل حاجز بين شيئين فهو موبق .

قال ابن جرير - رحمه الله - بعد أن ذكر جملة من الأقوال في ذلك :
وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ، "قول الذي ذكرناه ، أن الموبق بمعنى
المهلك وذلك أن العرب تقول في كلامها : قد أوبقت فلانا إذا أهلكته ... (١)"

ثم بين - سبحانه - حالة المجرمين عندما يبصرون النار فقال : "ورأى
المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا ،
ورأى هنا بصرية . والظن بمعنى اليقين والعلم ، لأنهم أبصروا الحقائق ،
وشاهدوا واقعهم الآليم مشاهدة لا لبس فيها ولا خفاء .

أى : وشاهد المجرمون بأعينهم النار ، فأيقنوا أنهم بخالطوها وواقعون
فيها . - يجب سوء أعمالهم ، وإنكشاف الحقائق أمامهم ، ولم يجدوا عنها
مصرفا : مكانا ينصرفون إليه ، ويعتصمون به . ليتخذوه ملجأ لهم منها :
فالمصرف : لمكان للجهة التي ينصرف إليها الإنسان للنجاة من ضر
أحاط به .

وعبر - سبحانه - عن رؤيتهم للنار بالفعل الماضي ، لتحقيق الوقوع .
وقال - سبحانه - "ورأى المجرمون ، فوضع المظهر موضع المضمرة ،
لتسجيل الإجراء عليهم ، ولزيادة الذم لهم .

وقد ذكر - سبحانه - هنا أن المجرمين يرون النار ، وذكر في آية أخرى
أنها تراهم - أيضا - قال - تعالى - : "إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها
تغيظا وزفيرا (٢)" .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكمت لنا فسوق إبليس عن أمر ربه ،
وحذرتنا من إتخاذها وليا ، ومن الانقياد لوسوسته وإغوائه ، كما حكمت لنا

جانبا من أحوال المشركين وشركائهم ، وكيف أن الشركاء قد تخلوا عن عابديهم في هذا اليوم العصيب ، بعد أن أحاطت النار بالجميع ، وأيقن المجرمون أنه لا فكاك لهم منها ، ولا نجاة لهم من لهيها ..

نسأل الله - تعالى - بفضلله وكرمه أن ينجيننا من هذا الموقف الرهيب .

ثم مدحت السورة الكريمة القرآن ، فوصفته بأن الله - تعالى - قد أكرّم فيه من ضرب الأمثال ، ونوعها لتشمل جميع الأحوال ، وبينت منه الله - تعالى - في الأمم السابقة ، كما بينت وظيفة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وسوء عاقبة المكذابين لهم ، ومظاهر رحمة الله - تعالى - بالناس .

استمع إلى السورة الكريمة وهي تحكي كل هذه المعاني بأسلوبها البليغ المؤثر فتقول :

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) وَمَا يُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، وَيَجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ، وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ لِمَنْ ذُكِّرَ آيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ، إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ، لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ، وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (٥٩) » .

وقوله - سبحانه - : « صرفا » من التصريف بمعنى التوزيع والتكثير .
 والمثل : هو القول الغريب السائر في الآفاق الذي يشبه مضر به مودده .
 وقد أكثر القرآن من ضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفي وتقريب الأمر
 المعقول من الأمر المحسوس ، وعرض الأمر الغائب في صورة الحاضر .

والمعنى : ولقد كررنا ورددنا ونوعنا في هذا القرآن من أجل هداية الناس ،
 ورعاية مصالحهم ومنفعتهم . من كل مثل من الأمثال التي تهدي النفوس ،
 وتشفي القلوب ، أدلهم بذلك يسلكون طريق الحق ، ويتركون طريق الباطل .
 فالمقصود بهذه الجملة الكريمة ، الشهادة من الله - تعالى - بأن هذا القرآن
 الذي أنزله - سبحانه - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - فيه من الأمثال الكثيرة
 المتنوعة النافعة ، ما يرشد الناس إلى طرق الحق والخير ، متى فتحوا قلوبهم له ،
 وأعملوا عقولهم لتدبره وفهمه .

ومفعول « صرفنا » محذوف ، و « من » لا ابتداء الغاية ، أي : ولقد صرفنا
 البينات والبرهان والحكم في هذا القرآن ، من أنواع ضرب لمثل المنفعة الناس
 ليهتدوا وينذكروا ..

ثم بين - سبحانه - موقف الإنسان من هذه الأمثال فقال : « وكان
 الإنسان أكثر شئ جدلا » .

والمراد بالإنسان : الجنس ، ويدخل فيه الكافر والفاسق دخولا أربابا .
 والجدل : الخصومة والمنازعة مع الغير في مسألة من المسائل .

أي : وكان الإنسان أكثر شئ مجادلة ومنازعة لغيره ، أي : أن جدله
 أكثر من جدل كل مجادل .

قال الامام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : ولقد بينا للناس في هذا
 القرآن ، ووضحنا لهم الأمور ، وفصلناها . كيلا يضلوا عن الحق . ومع
 هذا البيان ، فالإنسان كثير المجادلة والمعارضة للحق بالباطل ، إلا من هدى الله
 وبصره لطريق النجاة

قال الامام احمد : حدثنا أبو اليان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهري قال : أخبرني علي بن الحسين ، أن الحسين بن علي أخبره ، أن علي بن أبي طالب أخبره ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طرق عليا وفاطمة ليلة فقال : ألا تصليان ؟ فقلت يا رسول الله ، إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ، ولم يرجع إلى شيء . ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه ويقول ركان الانسان أكثر شيء جدلا ، (١) .

وفي التعبير عن الانسان في هذه الجملة بأنه شيء ، وأنه أكثر شيء جدلا ، إشعار لهذا الانسان بأن من الواجب عليه أن يقلل من غروره وكبريائه . وأن يشعر بأنه خلق من مخلوقات الله الكثيرة ، وأن ينتفع بأمثال القرآن ومواعظه وهداياه ... لا أن يجادل فيها بالباطل .

ومنه من يرى أن المراد بالانسان هنا : الكافر ، أو شخص معين قيل هو النضر بن الحارث . وقيل : أبي بن خلف . .

لكن الظاهر أن المراد به العموم - كما أشرنا - ، ويدخل فيه هؤلاء دخولا أوليا .

ثم حكى - سبحانه - الأسباب التي منعت بعض الناس من الايمان فقال : وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم ، إلا أن تأتيهم سنة الأولين ، أو يأتيهم العذاب قبلا . .

والمراد بالناس : كفار مكذوبين هذا حذوهم في الشرك والضلال . والمراد بسنة الأولين : ما أنزله - سبحانه - بالأمم السابقة من عذاب بسبب إصرارها على الكفر والجحود .

والمعنى : وما منع الكفار من الايمان وقت أن جاءهم الهدى عن طريق نبيهم - صلى الله عليه وسلم - ، ومن أن يستغفروا ربهم من ذنوبهم ، إلا ما سبق

في علمنا ، من أنهم لا يؤمنون ، بل يستمرون على كفرهم حتى تأتيم سنة
الاولين ، أى : ستأتى إهلاكهم بعذاب الاستئصال بسبب إصرارهم على كفرهم
ويجوز أن يكون الكلام على حذف مضاف ، ودان ، وما بعدها فى قوله
« إلا أن تأتيمهم » فى تأويل فاعل الفعل « منع » .

والمعنى : وما منع الناس من الايمان والاستغفار وقت مجىء الهدى إليهم ،
إلا طلب إتيان سنة الاولين ، كأن يقولوا - كما حكى الله - تعالى - عن بعضهم :
« فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين » .

فسنة الاولين أنهم طلبوا من أنبيائهم تعجيل العذاب ، فأخذهم الله أخذ
عزيز مقتدر

وقوله : « أو يأتيمهم العذاب قبلا » بيان لعذاب آخر يفتظرونه .

وكلمه « قبلا » قرأها عاصم والكسائي وحمزة - بضم القاف والياء - على
أنها جمع قيل وهو النوع فيكون المعنى : « أو يأتيمهم العذاب على صنوف وأنواع
مختلفة ، ومن جهات متعددة يتلو بعضها بعضها » .

وقرأها الباقون : « قبلا » - بكسر القاف وفتح الياء - بمعنى عيانا ومواجهة .
والمعنى : « أو يأتيمهم العذاب عيانا وجهارا » . وأصله من المقابلة ، لأن
المتقابلين يداين ويشاهد كل منهما الآخر .

وهى على القراءتين منصوبة على الحالية من العذاب .
لخاصل معنى الآية الكريمة أن هؤلاء الجاحدين لا يؤمنون ولا يستغفرون
إلا حين نزول العذاب الدنيوى بهم وهو ما اقتضته سنة الله - تعالى - فى أمثالهم ،
أو حين نزول أصناف العذاب بهم فى الآخرة .
ثم بين - تعالى - وظيفة الرسل فقال : « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين
ومنذرين ... »

أى : تلك هى وظيفة الرسل الكرام الذين أرسلهم لهداية الناس وإخراجهم
من ظلمات الكفر

فهم يبشرون المؤمنين بحسن العاقبة وجزيل الثواب ، وينذرون الفاسقين
والكافرين بسوء العاقبة ، وشديد العقاب .

وقوله - تعالى - : « ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق » .
بيان لموقف الكافرين من الرسل - عليهم الصلاة والسلام - .
« يجادل من المجادلة بمعنى الخصم والمنازعة » . ومفعوله محذوف .

والباطل : هو الشيء الزائل المضمحل الذي هو ضد الحق والعدل . والحق
هو الشيء الثابت القويم الذي تؤيده شريعة الله - عز وجل - .
والدحض : الطين الذي لا تستقر عليه الأقدام . فمعنى يدحضوا : يزيلوا
ويبطلوا تقول العرب : دحضت رجل فلان ، إذا زلت وزلقت . ومنه قوله
- تعالى - : « حجهتم داحضة عند ربهم » .

والمعنى : ويجادل الذين كفروا رسلمهم بالجدال الباطل ، ليزيلوا به الحق
الذي جاء به هؤلاء الرسل ويدحضوه ويبطلوه ، والله - تعالى - متم نوره ولو
كره الكافرون ، فإن الباطل مهما طال فإن مصيره إلى الاضمحلال والذوال .

وقوله - تعالى - : « واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا ، معطوف على ما قبله
لبيان رديلة أخرى من ردائل هؤلاء الكافرين .

والمراد بآيات الله : تلك المعجزات التي أيد الله - تعالى - بها رسله سواء
أكانت قولاً أم فعلاً ، ويدخل فيها القرآن دخولا أولياً .

أى : أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بجدال رسلمهم بالباطل ، بل أضافوا
إلى ذلك أنهم اتخذوا الآيات التي جاء بها الرسل كدليل على صدقهم ، واتخذوا
ما أنذروهم به من قوارع إذا ما استمروا على كفرهم . اتخذوا كل ذلك
« هزوا ، أى : اتخذوهما محل سخريتهم ولعسهم ولهوهم واستخفافهم ، كما قال
- سبحانه - : « وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا » .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المعرضين عن التذكير وعن آيات الله فقال :
 « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه . . . »
 والاستفهام هنا للنفي والإنكار والمراد بالآيات : آيات القرآن الكريم ،
 لقوله - تعالى - بعد ذلك : « أن يفقهوه » .

والمراد بالنسيان : الترك والاهمال وعدم التفكير والتدبر في العواقب .
 أى : ولا أحد أشد ظلما وبغيا . من إنسان ذكره مذكرو وعظه بآيات
 الله التي أنزلها على رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، فأعرض عنها دون أن
 يقبلها أو يتأملها ، بل نبذها وراء ظهره ، ونسى ما قدمت يداه من السيئات
 والمعاصي ، نسيان ترك وإهمال واستخفاف .

ثم بين - سبحانه - علة هذا الإعراض والنسيان فقال : « إنا جعلنا على
 قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا
 إذا أبدا » .

والأكنة : جمع كنان بمعنى غطاء . والوقر : الثقل والصمم . يقال : فلان
 وقرت أذنه ، أى : ثقل سمعها وأصيبت بالصمم .

أى : إنا جعلنا على قلوب « هؤلاء الظالمين المعرضين عن الحق ، أغشية تمنع
 قلوبهم عن وصول النور إليها » ، وتحجبها عن فهم آياته - سبحانه - وجعلنا
 - أيضا - في آذانهم صمما ونقلا عن سماع ما يفقههم وذلك بسبب إستحبابهم
 العمى على الهدى ، وإيثارهم الكفر على الإيمان .

« وإن تدعهم » أيها الرسول الكريم « إلى الهدى ، والرشد . فلن
 يستجيبوا لك ، ولن يهتدوا إذا أبدا ، إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ،
 بسبب زيف قلوبهم ، واستيلاء الكفر والجحود والعناد عليها .

والضمير في قوله « أن يفقهوه » يعود إلى الآيات ، وتذكيره وإفراده
 بإعتبار المعنى ، إذ الله عز وجل

وجاء الضمائر في أول الآية بالافراد ، كما في قوله ، ذكر د و د أعرض عنها ، ونسى ما قدمت يدها ، باعتبار لفظ د من ، في قوله د ومن أظلم . . . ، وجاءت بعد ذلك بالجمع كما في قوله سبحانه - : د إذا جعلنا على قلوبهم أكنة . . . ، باعتبار المعنى .

وهذا الأسلوب كثير في القرآن الكريم ، ومنه قوله - تعالى - : د ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، قد أحسن الله له رزقا ، .

فالضمير في قوله د يؤمن د يعمل ويدخله ، جاء بصيغة الافراد باعتبار لفظ د من ، ، وفي قوله : د خالدين فيها ، جاء بصيغة الجمع باعتبار معنى د من ، . ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على سعة رحمته ، وعظيم فضله فقال : د وربك العفوور ذو الرحمة د لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا ، .

أى : وربك - أيها الرسول الكريم - هو صاحب المغفرة الكثيرة ، وصاحب الرحمة التي وسعت كل شيء . لو يؤاخذ الناس بما كسبوا من الذنوب والمعاصي ، لعجل لهم العذاب بسبب ما يرتكبونه ، من كفر وأثم ، ولكنه - سبحانه - لم يعجل لهم العذاب رحمة منه وحلما .

وجملة د بل لهم موعد . . . معطوفة على مقدر ، فكأنه - سبحانه - قال : ولكنه - سبحانه - لم يؤاخذهم ، بل جعل لهم وقتا معيناً لعذابهم ، لن يجدوا من دون هذا العذاب ، موئلا ، .

أى ملجأ يلتجئون إليه ، أو مكانا يعتصمون به .

فالموئل : اسم مكان . يقال : وأل فلان إلى مكان كذا يثل والألا . . . إذا لجأ إليه ليعتصم به من ضرر متوقع .

فلاية الكريمة تبين أن الله - تعالى - بفضله وبرمه لا يعاجل الناس . بالعقاب ، ولكنه - عز وجل - ليس غافلا عن أعمالهم ، بل يوخزم إلى

الوقت الذي تقتضيه حكمته ، لكي يماقهم على ما ارتكبوه من ذنوب وآثام .

وفي معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : **وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظُهُرِهَا شَيْئًا ، وَلَكِنْ يُؤْخِرُهم إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى . فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ، (١)** .

وقوله - تعالى - : **وَلِإِنْ رَّبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَلِإِنْ رَّبُّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ، (٢)** ثم بين - سبحانه - سنته في الأمم الماضية فقال : **وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ، .**

واسم الإشارة **ذلك** ، تعود إلى القرى المهلكة بسبب كفرها وفسوقها عن أمر ربها ، كقرى قوم نوح وهود وصالح - عليهم السلام - .
والقرى : جمع قرية والمراد بها أهلها الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والجحود .:

أى : **وتلك القرى الماضية التي أصر أهلها على الكفر والفسوق والعصيان أهلكتهم بعذاب الاستئصال في الدنيا ، بسبب هذا الكفر والظلم ، وجعلنا لوقت هلاكهم موعدا لا يتأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون .**

ولفظ **ذلك** ، مبتدأ ، والقرى صفة له أو عطف بيان ، وجملة **أهلكتهم** ، هي الخبر .

وقوله **لما ظلموا** ، بيان للأسباب التي أدت بهم إلى الهلاك والدمار ، أى : **أهلكتهم بسبب وقوع الظلم منهم واستمرارهم عليه .**

وجيء باسم الإشارة **ذلك** ، للإشعار بأن أهل مكة يعمرون عن تلك القرى الظالمة المهلكة ، ويعرفون أماكنهم معرفة واضحة عند أسفارهم من مكة

(١) - سورة فاطر الآية ٤٥

(٢) سورة الرعد الآية ٦٤

إلى بلاد الشام . قالى - تعالى - د وإنيكم لعرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ، (١) .

وقوله : د وجعلنا لهم لهم موعدا ، قرأ الجمهور ، لهم لهم ، - بضم الميم وفتح اللام - على صيغة المفعول ، وهو محتمل أن يكون مصدرا ميميا ، أى : رجعلنا لإهلاكم موعدا . ويحتمل أن يكون اسم زمان ، أى : وجعلنا لزمان إهلاكم موعدا .

وقرأ حفص عن عاصم ، لهم لهم ، بفتح الميم وكسر اللام - فيكون اسم زمان ، وقرأ شعبة عن عاصم ، لهم لهم ، - بفتح الميم واللام - فيكون مصدرا ميميا .

وإلى هنا نجد الآيات الكريمة قد وضحت أن القرآن الكريم قد نوع الله - تعالى - فيه الأمثال لقوم يعقلون ، كما بينت أن الإنسان مجبور على المجادلة والخاصة . وأن المشركين قد أصرروا على شركهم بسبب انطماس بصائرهم ، وزيغهم عن الحق ، وأن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وظيفتهم البلاغ والتبشير والإنذار ، وأن عاقبة الجاحدين الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم هى النار وبئس القرار ، وأن الله - تعالى - يهل الظالمين ولا يهملهم ، فهو كما قال - سبحانه - د نبي عبادى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم ، (٢) .

• • •

ثم ساق - سبحانه - قصة فيها ما فيها من الأحكام والعظات ، ألا وهى قصة موسى - عليه السلام - مع عبد من عباد الله الصالحين ، فقال - تعالى - :

(١) سورة الصافات الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨

(٢) سورة الحجر الآيتان ٤٩ ، ٥٦

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَبَيْهَا حَوْتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ، فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتِيَنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ، وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥) » .

قال الإمام الرازي ما ملخصه : اعلم أن هذا لإبتداء قصة ثلاثة ذكروا الله - تعالى - في هذه السورة ، وهي أن موسى - عليه السلام - ذهب إلى الخضر ليتعلم منه ، وهذا وإن كان كلاما مستقلا في نفسه إلا أنه يعين على ما هو المقصود في القصتين السابقتين : أما نفع هذه القصة في الرد على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين ، فهو أن موسى مع كثرة علمه وعمله ... ذهب إلى الخضر لطلب العلم وتواضع له ...

وأما نفع هذه القصة في قصة أصحاب الكهف ، فهو أن اليهود قالوا للكفار مكة : ، إن أوجبكم محمد - صلى الله عليه وسلم - عن هذه القصة فهو نبي وإلا فلا ، وهذا ليس بشيء ، لأنه لا يلزم من كونه نبيا أن يكون عالما بجميع القصص كما أن كون موسى نبيا لم يمنعه من الذهاب ليتعلم منه ، (١) .

وموسى - عليه السلام - هو ابن عمران ، وهو أحد أولى العزم من الرسل ، وينتهي نسبه إلى يعقوب - عليه السلام - .

وفتاة : هو يوشع بن نون ، وسعى بذلك لأنه كان ملازما لموسى - عليه السلام - ويأخذ عنه العلم .

(١) التفسير الكبير للرازي ج ٢١ ص ١٤٣ .

وقوله : « لا أبرح ، أى : لا أزال سائرا . ومنه قوله - تعالى - « لن نبرح عليه عاكفين » . من برح الناقص .

قال الجمل : واسمها مستقر وجوبا ، وخبرها محذوف ، تقديره : لا أبرح سائرا ، وقوله « حتى أبلغ » . . . غايه لهذا المقدر . ويحتمل أنها تامة فلا تستدعى خبرا ، بمعنى : لا أزال عما أنا عليه من السير والطلب ولا أفارقه حتى أبلغ . . . (١) .

« وجمع البحرين » : المكان الذى فيه يلتقى البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط .

قال الألوسى : والمجمع : الملتقى ، وهو اسم مكان ... والبحر ان : بحر فارس والروم ، كما روى عن مجاهد وقتادة وغيرهما وملتقاها : مما إلى المشرق ولعل المراد مكان يقرب فيه التقاؤهما . . . وقيل البحرين : بحر الأردن وبحر القلزم . . . (٢) .

وقال بعض العلماء : والأرجح - والله أعلم - أن بجمع البحرين : بحر الروم وبحر القلزم .

أى : البحر الأبيض والبحر الأحمر . وجمعهما مكان التقائهما فى منطقة البحيرات المرة وبحيرة التمساح . وأنه بجمع خليجى العقبة والسويس فى البحر الأحمر . فهذه المنطقة كانت مسرح تاريخ بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر . وعلى أية حال فقد تركها القرآن بحملة فنكتفى بهذه الإشارة ، (٣) .

والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - لقومك لىكى يعتبروا ويتعظوا

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٣٢

(٢) تفسير الألوسى ج ١٥ ص ٣١٢ .

(٣) فى ظلال القرآن ص ٢٢٨٧ الأستاذ سيد قطب .

وقت أن قال أخوك موسى - عليه السلام - لفتاه يوشع بن نون ، أصحبتى فى رحلتى هذه فأبى لا أزال - أثرا حتى أصل إلى مكان التقاء البحرين ، فأجد فيه بغيقى ومقصدى ، د أو أمضى ، فى سبرى ، حقبا ، أى : زمنا طويلا ، إن لم أجد ما أبتغيه هناك .

والحقب - بضم الحاء والقاف - جمعه أحقاب ، ومعناه : الحقبة - بكسر الحاء - وجمعها حقب - كسدره وسدر - والحقبة - بضم الحاء - وجمعها : حقب كغرفة وغرف - . قيل : مدنها ثمانون عاما . وقيل سبعون . وقيل : زمان من الدهر مبهم غير محدد .

والآية الكريمة نذل بأسلوبها البليغ ، على أن موسى - عليه السلام - كان قد صمم على بلوغ مجمع البحرين مهما تكن المشقة فى سبيل ذلك ، ومهما يكن الزمن الذى يقطعه فى سبيل الوصول إلى غايته ، وهو يعبر عن هذا التصميم بما حكاه عنه القرآن بقوله : د أمضى حقبا ، .

وقد أشار الآلوسى - رحمه الله - إلى سبب تصميم موسى على هذه الرحلة فقال : د وكان منشأ عنية موسى - عليه السلام - على ما ذكر ، مارواه الشيخان وغيرهما من حديث ابن عباس عن أبى بن كعب ، أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : د إن موسى - عليه السلام - قام خطيبا فى بنى إسرائيل فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا . فعاتبه الله - تعالى - ، إذ لم يرد العلم لإياه - سبحانه - فأوحى الله - تعالى - إليه ، إن لى عبدا يجمع البحرين هو أعلم منك

وفى رواية أخرى عن أبى - أيضا - . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - أن موسى - عليه السلام - سأل ربه فقال : أى رب فقال ، إن كان فى عبادك أحد هو أعلم منى فدانى عليه ، فقال له : د نعم فى عبادى من هو أعلم منك ، ثم نعت له مكانه وأذن له فى لقائه ، (١) .

(١) تفسير الآلوسى ج ١٥ ص ٣١٣ .

ثم تقص علينا السورة الكريمة ما حدث بعد ذلك فتقول : فلما بلغ مجمع بينهما نسيا حوتهما . فاتخذ سبيله في البحر سربا .

والفاء في قوله : فلما بلغا ، وفي قوله : فاتخذ سبيله . . . هي الفصيحة

والسرب : النفق الذي يكون تحت الأرض . أو القناة التي يدخل منها الماء إلى البستان لسقي الزرع .

والمعنى : وبعد أن قال موسى لفته ما قال ، أخذا في السير إلى مجمع البحرين ، لما بلغا هذا المكان نسيا حوتهما ، أى : نسيا حوتهما ونسيا تفقده أمره ، فحي الحوت ، وسقط في البحر ، واتخذ سبيله ، أى طريقه في البحر سربا .

أى : واتخذ الحوت طريقة في البحر ، فكان هذا الطريق مثل السرب أى النفق في الأرض بحيث يسير الحوت فيه ، وأثره واضح .

قال الإمام ابن كثير : قوله : فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ، وذلك أنه قد أمر بحمل حوت مملوح - أى مشوى - معه وقيل له : متى فقدت الحوت ، فهو ثمة - أى فالرجل الصالح الذي هو أعلم منك يا موسى في هذا المكان - . فسارا حتى بلغا مجمع البحرين . وهناك عين يقال لها عين الحياة ، فثما هناك ، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء فاضطرب ، وكان في مكمل مع يوشع ، وطفر من المكمل إلى البحر ، فاستيقظ يوشع ، وسقط الحوت في البحر ، وجعل يسير فيه ، والماء له مثل الطاق - أى مثل البقاء المقوس كالقنطرة - لا يلبثم بعده ، ولهذا قال : فاتخذ سبيله في البحر سربا ، أى : مثل السرب في الأرض ، (١) .

وقال الإمام البيضاوى : قوله : نسيا حوتهما ، أى : نسى موسى أن

يطلبه ويتعرف حاله ، ونسى يوشع أن يذكر له ما رأى من حياته ووقوعه في البحر ، (١) .

ثم بين - سبحانه - ما كان منهما بعد ذلك فقال : فلما جاوزا ، أى : المسكان الذى فيه يجمع البحرين .

وقال ، موسى - عليه السلام - دلفتاه ، يوشع بن نون د آتنا غداءنا ، أى : أحضر لنا ما نأكله من هذا الخوت المشوى الذى معنا : ثم علل موسى - عليه السلام - هذا الطلب بقوله : د لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، أى : تعباً وإعياء .

ولم الإشارة د هذا ، مشار به إلى سفرهما المتلبسان به .

قالوا . ولكن باعتبار بعض أجزائه ، فقد صح أنه - صلى الله عليه وسلم - قال : د لم يجد موسى شيئاً من التعب حتى جاوز المسكان الذى أمر به ، (٢) .

وقوله - سبحانه - : د قال أرأيت إذ أوبنا إلى الصخرة فإني نسيت الخوت ، حكاية لما رد به يوشع على موسى - عليه السلام - عندما طلب منه الغداء .

والاستفهام فى قوله د أرأيت ، للتعجب مما حدث أمامه من شأن الخوت حيث عادت إليه الحياة ، وقفز فى البحر ، ومع ذلك نسي يوشع أن يخبر موسى عن هذا الأمر العجيب .

أى : قال يوشع لموسى - عليه السلام - : تذكر وإنّته واستمع إلى ما سألقيه عليك من خبر هذا الخوت ، أرأيت مادهاى فى وقت أن أوبنا ولجأنا إلى الصخرة التى عند يجمع البحرين ، فإني هناك نسيت أن أذكر لك ما شاهدته منه من أمور عجيبة ، فقد عادت إليه الحياة ، ثم قفز فى البحر .

(١) تفسير البياضى ج ٢ ص ١٨ .

(٢) تفسير الألوسى ج ١٥ ص ٣١٧ .

وقال : إذ أوبنا إلى الصخرة ، دون أن يذكر بجمع البحرين ، زيادة في تحديد المكان وتعيينه . وأوقع النسيان على الحوت دون الغداه الذي طلبه منه موسى ، للاشعار بأن الغداه الذي طلبه موسى منه ، هو ذلك الحوت الذي فقده .

وقوله : وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، جملة معترضة جىء بها لبيان ما يجرى مجرى السبب في وقوع النسيان منه .
وقوله : أن أذكره ، بدل إشتغال من الهاء في : أنسانيه ، .

أى : وما أنساني تذكريك بما حدث من الحوت إلا الشيطان الذي يوسوس للإنسان ، بوساوس متعددة ، تجعله يذهل وينسى بعض الأمور الهامة .

وقوله : واتخذ سبيله في البحر عجبا ، معطوف عن قوله : فإني نسيت الحوت ، .

أى : نسيت أن أخبرك بأن الحوت عندما أوبنا إلى الصخرة عادت إليه الحياة ، واتخذ طريقه في البحر اتخاذا عجيبا ، حيث صار يسير فيه وله أثر ظاهر في الماء والماء من حوله كالقنطرة التي تنفذ منها الأشياء .

وعلى هذا تكون جملة ، واتخذ سبيله في البحر عجبا ، من بقية كلام يوشع للمتعجب مما حدث من الحوت ، حيث عادت إليه الحياة بقدرة الله - تعالى - ، واتخذ طريقه في البحر بتلك الصورة العجيبة .

وقيل : إن هذه الجملة من كلام الله - تعالى - لبيان طرف آخر من أمر هذا الحوت العجيب ، بعد بيان أمره قبل ذلك بأنه اتخذ سبيله في البحر سررا .

ويبدو لنا أن الرأي الأول أرجح ، لأن سياق الآية يدل عليه ، لذا لاكتفى به بعض المفسرين دون أن يشير إلى غيره .

قال الامام الرازى : قوله : واتخذ سبيله في البحر عجبا ، فيه وجوه :

الأول : أن قوله « عجباً ، صفة لمصدر محذوف ، كأنه قيل : واتخذ سبيله في البحر إتخاذاً عجباً ، ووجه كونه عجباً لإتقلا به من المكمل وصيرورته حياً وإلقاء نفسه في البحر .

الثاني : أن يكون المراد منه ما ذكرنا من أنه - تعالى - جعل الماء عليه كالطاق وكالسرب .

الثالث : قيل إنه تم الكلام عند قوله « واتخذ سبيله في البحر » ، ثم قال بعده : عجباً . والمقصود منه تعجب يوشع من تلك الحالة العجيبة التي رآها ، ثم نسيانه لها . . . (١) .

وهنا يحكى القرآن ما يدل على أن موسى - عليه السلام - قد أدرك أنه تجاوز المكان الذي حدد له ربه - تعالى - للقاء العبد الصالح فقال : « قال ذلك ما كنا نبغ ، فارتدا على آثارهما قصصاً » .

أى قال موسى لفتاه : ذلك الذى ذكرته لى من أمر نسيانك لخبر الحوت هو الذى كنا نبغيه ونطلبه ، فإن العبد الصالح الذى نريد لقاءه موجود فى ذلك المكان الذى فقدنا فيه الحوت .

« فارتدا على آثارهما قصصاً » ، أى : فرجما من طريقهما الذى أتيا منه ، يتبعان آثارهما لئلا يضلأ عنه ، حتى انتهيا عائدین مرة أخرى إلى موضع الصخرة التى فقد الحوت عندها .

وقصصاً : من القص بمعنى إلتباع الأثر . يقال : قص فلان أثر فلان قصاً وقصصاً إذا تتبعه .

ثم حكى القرآن ما تم لهما بعد أن عادا إلى مكانهما الأول فقال : « فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعليناه من لدنا علماً » .

أى : وبعد أن عادا إلى الصخرة عند مجمع البحرين مرة أخرى وجدا عبداً

من عبادنا ، الصالحين . والتذكير في « عبدا » ، للتفخيم ، والإضافة في « عبادنا » ،
للتشريف والتكريم .

« آتيناه رحمة من عندنا ، أى : هذا العبد الصالح منحناه وأعطيناه رحمة
عظيمة من عندنا وحدنا لا من عند غيرنا : واختصصناه بها دون غيره .
وهذه الرحمة تشمل النعم التى أنعم الله - تعالى - بها عليه - كنعمة الهداية
والطاعة وغيرهما .

« وعلمناه من لدنا علما ، أى : وعلمناه من عندنا لا من عند غيرنا علماً
خاصاً ، لا يتيسر إلا لمن زيد تيسيره ومنحه له .
والمراد بهذا العبد : الخضر - عليه السلام - كما دلت على ذلك الأحاديث
الصحيحة .

ومن العلماء من يرى أنه كان نبياً ، ومنهم من يرى أنه كان عبداً صالحاً
اختصه الله بلون معين من العلم اللدنى .

أخرج البخارى وغيره عن أبى هريرة عن النبى - صلى الله عليه وسلم -
قال : إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هى تهتز من خلفه
خضراء (١) .

ويرى المحققون من العلماء أنه قد مات كما يموت سائر الناس . وإلى ذلك
ذهب الإمام البخارى وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم وغيرهم .
ويرى آخرون أنه حى وسيموت فى آخر الزمان .

قال ابن القيم : إن الأحاديث التى يذكر فيها أنه حى كلها كذب ، ولا
يصح فيها حديث واحد . وهذه المسائل من المسائل التى فصل العلماء الحديث
عنها . فارجع إلى أقوالهم فيها إن شئت (٢) .

(١) تفسير الألوسى ج ١٥ ص ٣١٩ .

(٢) راجع ابن كثير ج ٥ ص ١٧١ . والألوسى ج ١٥ ص ٣١٩ وأضواء البيان .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ، ما دار بين موسى والخضر - عليهما السلام -
بعد أن التقيا فقال - تعالى - :

« قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦)
قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ
خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩)
قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) » .

أى : قال موسى للخضر - عليهما السلام - بعد أن التقيا : هل أتبعك ، أى :
هل تأذن لى فى مصاحبتك وأتباعك . بشرط أن تعلمنى من العلم الذى علمك
الله إياه : شيئاً أسئد به فى حياتى ، وأصيب به الخير فى دبنى .

فأنت ترى أن موسى - عليه السلام - قد راعى فى مخاطبته للخضر أسئى
ألوان الأدب اللائق بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - حيث خاطبه بصيغة
الاستفهام الدالة على التلطف ، وحيث أنزل نفسه منه منزلة المتعلم من المعلم ،
وحيث استأذنه فى أن يكون تابعاً له ، ليتعلم منه الرشد والخير .

قال بعض العلماء : فى هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم ، ولم
تفاوت المراتب ، ولا يظان أن فى تعلم موسى بن الخضر ما يدل على أن الخضر
كان أفضل من موسى ، فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل : وقد يأخذ الفاضل عن
المفضول ، إذا أختص الله - تعالى - أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر ، فقد كان
علم موسى يتعلق بالأحكام الشرعية والقضاء بظاهرها ، وكان علم الخضر
يتعلق ببعض الغيب ومعرفة البواطن . . . (١)

ثم حكى - سبحانه - ما رد به الخضر على موسى فقال : « قال إنك لن تستطيع معي صبرا » .

أى : قال الخضر لموسى إنك يا موسى إذا اتبعتنى ورافقتنى ، فلن تستطيع معي صبرا ، بأى وجه من الوجوه .

قال ابن كثير : أى : أنت لا تقدر يا موسى أن تصاحبنى ، لما ترى من الأفعال التى تخالف شريعتك ، لأننى على علم من علم الله - تعالى - ما عليك إياه ، وأنت على علم من علم الله - تعالى - ما علمنى إياه ، فكل منا مكلف بأمر من الله دون صاحبه ، وأنت لا تقدر على صحبتي ، (١) .

وقوله : « وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا » ، تعليل لعدم استطاعة الصبر معه .

أى : وكيف تصبر يا موسى على أمور ستراها منى . هذه الأمور ظاهرها أنها منكرات لا يصح السكوت عليها ، وباطنها لا تعلمه لأن الله لم يطلعك عليه ؟ فالخير بمعنى العلم . يقال : خبر فلان الأمر يخبره : أى : علمه . والاسم الخبر ، وهو العلم بالشئ ، ومنه الخبر ، أى : العالم .

وكان الخضر يريد بهذه الجملة الكريمة أن يقول لموسى : إني واثق من أنك لن تستطيع معي صبرا ، لأن ما سأفعله سيصطدم بالأحكام الظاهرة ، وبالمنطق العقلى ، وبغيرتك المعهودة فيك ، وأنا مكلف أن أفعل ما أفعل ، لأن المصلحة الباطنة فى ذلك ، وهى تخفى عليك . . .

ولم يكن موسى - عليه السلام - الحريص على تعلم العلم النافع ، يصبر على مصاحبة الرجل الصالح ، فيقول له فى لطف وأدب ، مع تقديم مشيئة الله - تعالى - : « ستجدنى - إن شاء الله - صابرا ، ولا أعصى لك أمرا » .

أى : قال موسى للخضر : ستجدنى إن شاء الله صابراً ، معك ، غير معترض عليك ، ولا أعصى لك أمراً من الأمور التى تمكفنى بها .

وقدم موسى - عليه السلام - المشيئة ، أدبا مع خالقه - عز وجل - واستعانة به - سبحانه - على الصبر وعدم المخالفة .

وهنا يحكى القرآن الكريم أن الخضر ، قد أكد ما سبق أن قاله لموسى ، وبين له شروطه إذا أراد مصاحبته ، فقال : « قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شئ حتى أحدث لك منه ذكراً » .

أى : قال الخضر لموسى على سبيل التأكيد والتوثيق : يا موسى إن رافقتنى وصاحبتنى ، ورأيت منى أفعالا لا تعجبك ، لأن ظاهرها يتنافى مع الحق . فلا تعترض عليها ، ولا تناقشنى فيها ، بل اتركنى وشأنى ، حتى أبين لك فى الوقت المناسب السبب فى قيامى بذلك الأفعال ، وحتى أكون أنا الذى أقصره لك .

قالوا : « وهذا من الخضر تأديب وإرشاد لما يقتضى دوام الصحبة ، فلو صبر - موسى - ودأب لرأى العجب » .

ثم تحكى السورة بعد ذلك ثلاثة أحداث فعلها الخضر ولكن موسى لم يصبر عليها ، بل اعترض وناقش ، أما الحادث الأول فقد بينه - سبحانه - بقوله :

« فَأَنْطَلَقَا ، حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ، قَالَ أَخَرَقْتُهَا لِتُفَرِّقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) » .

وقوله : « فانطلقا » بيان لما حدث منهما بعد أن استمع كل واحد منهما إلى ما قاله صاحبه .

أى : فانطلق موسى والخضر - عليهما السلام - على ساحل البحر ، ومعهما يوشع بن نون ، ولم يذكر في الآية لأنه تابع لموسى .

ويرى بعضهم أن موسى - عليه السلام - صرف فتاه بعد أن التقى بالخضر .

أخرج الشيخان عن ابن عباس : أنهما انطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة « فكلموهم أن يحملوهم » فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول : أى أجر ، (١) .

وقوله : « حتى إذا ركبا في السفينة خرقها » بيان لما فعله الخضر بالسفينة .
أى : فانطلقا يبحثان عن سفينة ، فلما وجداها واستقرا فيها ، ما كان من الخضر إلا أن خرقها . قيل : بأن قلع لوحاً من ألواحها .
وهنا ما كان من موسى إلا أن قال على سبيل الاستفكار والتعجب عما فعله : « أخرقتها لتغرق أهلها . . . » .

أى : أفعلت ما فعلت لتكون عاقبة الراكبين فيها الغرق والموت بهذه الصورة المؤلمة ؟

« لقد جئت شيئاً إمرأ » والإمرأ : الداهية . وأصله كل شيء شديد كبير ومنه قولهم : إن القوم قد أمروا . أى : كثروا واشتد شأنهم . ويقال : هذا أمر إمرأ ، أى : منكر غريب .

أى : قال موسى للخضر بعد خرقه للسفينة : لقد جئت شيئاً عظيماً ، وارتسكت أمراً بالغاً في الشناعة . حيث عرضت ركاب السفينة لخطر الغرق .

وهنا أجابه الخضر بقوله : « ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا ، أى :
ألم أقل لك سابقا إنك لن تستطيع مصاحبتي ، ولأخرة لك على السكوت
على تصرفاتي التي لا تعرف الحكمة من وراءها ؟

ولكن موسى - عليه السلام - رد معتذرا لما فرط منه وقال : « لا تؤاخذني ،
أيها العبد الصالح ، بما نسيت ، أى : بسبب نسياني لوصيتك في ترك السؤال
والاعتراض حتى يكون لي منك البيان .
ولا ترهقني من أمرى عمرا ، أى : ولا تكلفني من أمرى مشقة في صحبتي
إياك .

يقال : أرهق فلان فلانا ، إذا أتعبه وأثقل عليه وحمله مالا يطيقه .
والمراد : التمس لي عذرا بسبب النسيان ، ولا تضيق علي الأمر ، فإن في هذا
التضييق ما يحول بيني وبين الانتفاع بهلك ،
وكان موسى . عليه السلام - الذي اعتزم الصبر ، وقدم المشيئة ، ورضى
بشروط الخضر في المصاحبة . . . كأنه قد نسي كل ذلك أمام المشاهدة العملية ،
وأمام التصرف الغريب الذي صدر من الخضر دون أن يعرف له سببا .
وهكذا الطبيعة البشرية تلتقي في أنها تجد للتجربة العملية وقعا وطعما ،
يختلف عن الواقع والطعم الذي تجده عند التصور النظري .
فوسى - عليه السلام - وعد الخضر بأنه سيصبر . . . إلا أنه بعد أن
شاهد مالا يرضيه اندفع مستنكرا .

أما الحادث الثاني الذي لم يستطع موسى أن يقف أمامه صامتا ، فقد حكاه
القرآن في قوله :

« فَاظْلَمْنَا حَتَّى إِذَا لَقِيََا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ، قَالَ أَقْتَلْتَنِي زَكِيَّةً بِغَيْرِ
نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا » (١٧) ، قَالَ الْاَلَاءُ اَقْتُلَا اِنَّ اِيَّاكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ

مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنَ لُدُنِّي عُذْرًا (٧٦) .

أى : فانطلق موسى والخضر للمرة الثانية بعد خروجهما من السفينة ، وبعد أن قبل الخضر اعتذار موسى .

« حتى إذا لقيا غلاما ، فى طريقهما ، ما كان من الخضر إلا أن أخذه وقتله . »

وهنا لم يستطع موسى - عليه السلام - أن يصبر على ما رأى ، أو أن يكظم غيظه ، فقال باستنكار وغضب : « أقتلت نفسا زكية ، أى : ظاهرة بريئة من الذنوب » بغير نفس ، »

أى : بغير أن ترتكب ما يوجب قتلها ، لأنها لم تقتل غيرها حتى تقتص منها .
أى : أن قتلك لهذا الغلام كان بغير حق .

« لقد جئت « أيها الرجل » شيئا نكرا ، أى : منكرا عظيما . يقال : نكر الأمر ، أى : صعب واشتد . والمقصود : لقد جئت شيئا أشد من الأول فى فظاعته واستنكار العقول له .

ومرة أخرى يذكره الخضر بالشرط الذى اشترطه عليه . وبالوعد الذى قطعه على نفسه ، فيقول له : « ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا ، »

وفى هذه المرة لا يكتفى الخضر بقوله : « ألم أقل لك . . . » بل يضيف لفظ ، لك ، زيادة فى التحديد والتعيين والتذكير .

أى : ألم أقل لك أنت يا موسى لا لغيرك على سبيل التأكيد والتوثيق : إنك لن تستطيع معي صبرا ، لأنك لم تحط علما بما أفعله .

وبراجع موسى نفسه . فيجد أنه قد خالف ما اتفق عليه مع الرجل الصالح مرتين ، فيبادر بأخبار صاحبه أن يترك له فرصة أخيره فيقول : « إن سألتك ،

أيها الصديق د عن شيء بعدها ، أى : بعد هذه المرة الثانية ، فلا تصاحبني ، أى :
فلا تجعلني صاحباً أو رفيقاً لك ، فإنك د قد بلغت من لدني عذراً ، أى : فإنك
قد بلغت الغاية التي تكون معذوراً بعدها في فراقى ، لأنى أكون قد خالفتك
مراراً .

وهذا الكلام من موسى - عليه السلام - يدل على إعتذاره الشديد للخضر ،
وعلى شدة ندمه على ما فرط منه ، وعلى الاعتراف له بخطئته .

قال القرطبي : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا دعا لأحد بدأ
بنفسه فقال يوماً : د رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر على صاحبه لرأى
العجب ، ولكنه قال : د إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ... (١) .
ثم نسوق لنا السورة الكريمة الحادث الثالث والآخر في تلك القصة
الزاهرة بالمفاجآت والعجائب فنقول :

« فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ، فَأَبَوْا أَنْ
يُضَيِّقُوا لَهُمَا ، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ ، قَالَ لَوْ شِئْتَ
لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ
بَتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) » .

أى : فانطلق موسى والخضر - عليهما السلام - يتابعان سيرهما ، حتى إذا
أتيا أهل قرية ، قيل هى د أنطاكية ، ، وقيل : هى قرية بأرض الروم ...
د استطعما أهلها ، والاستطعام : سؤال الطعام . والمراد به هنا سؤال
الضيافة لأنه هو المناسب لمقام موسى والخضر - عليهما السلام - ولأن قوله
- تعالى - بعد ذلك : د فأبوا أن يضيئفوهما ، يشهد له .
أى : فأبى وامتنع أهل تلك القرية عن قبول ضيافتهمما بخلا منهم وشحاً .

وقوله - تعالى - : « فوجدنا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه ، معطوف على « أتينا ، أي : وبعد أن امتنع أهل القرية عن استضافتهما ، تجولاً فيهما فوجدنا فيها جداراً ، أي : بناء مرتفعاً يريد أن ينقض ، أي : ينهدم ويسقط . فأقامه ، أي الخضر بأن سواه وأعاد إليه إعتداله . أو بأن نقضه وأخذ في بنائه من جديد . »

وهنا لم يتمالك موسى - عليه السلام - مشاعره ، لأنه وجد نفسه أمام حالة متناقضة ، قوم بخلاء أشقاء لا يستحقون العون ... ورجل يتعب نفسه في إقامه - انط مائل لهم ... هلا طلب منهم أجراً على هذا العمل الشاق ، خصوصاً وهما جائعان لا يجدان مأوى لهم في تلك القرية !

لذا بادر موسى - عليه السلام - ليقول للخضر : « لو شئت لاتخذب عليه أجراً ، »

أي : هلا طلبت أجراً من هؤلاء البخلاء على هذا العمل ، حتى تنفع به ، وأنت تعلم أننا جائعان وهم لم يقدموا لنا حق الضيافة .

فالجمله الكريمة تحريض من موسى للخضر على أخذ الأجر على عمله ، ولوم له على ترك هذا الأجر مع أنهما في أشد الحاجة إليه .

وكان هذا التحريض من موسى للخضر - عليهما السلام - هو نهاية المرافقة والمصاحبة بينهما ، ولذا قال الخضر لموسى : « هذا فراق بيني وبينك ، أي : هذا الذي قلته لي ، يجعلنا نفترقان ، لأنك قد قلت لي قبل ذلك : « إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ، » وهما أنت تسألني وتحرضني على أخذ الأجر ... »

ومع ذلك فانتظر : سأنبئك ، قبل مفارقتي لك « بتأويل ، أي : بتفسير وبيان ما خفي عليك من الأمور الثلاثة التي لم تسطع عليها صبراً ، لأنك لم يكن عندك ما عندي من العلم بأسرارها الباطنة التي أطلعني الله - تعالى - عليها .

ثم حكى القرآن الكريم ما قاله الخضر لموسى عليهما السلام - في هذا الشأن فقال - تعالى - .

« أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ، وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) » .

أى قال الخضر لموسى : د ، أَمَّا السَّفِينَةُ ، التى أغرقتها ولم ترض عنه ، فكانت لمساكين يعملون فى البحر د أى : لضعفاء من الناس لا يستطيعون دفع الظلم عنهم ، ولم يكن لهم مال يتعيشون منه سواها ، فكانت الناس يركبون فيها وبدفعون لهم لاه المساكين الأجر الذين ينتفعون به .

د فأردت أن أعيبها ، أى : أن أجعلها ذات عيب بالخرق الذى خرقها فيه ، ولم أرد أن أغرق أهلها كما ظننت يا موسى ، والسبب فى ذلك ؛ أنه كان وراءهم ملك ، ظالم ، من دأبه أن يتعقب السفن الصالحة الصالحة ، ويستولى عليها ، ويأخذها لغتصابا وقسرا من أصحابها .

فهذا العيب الذى أحدثته فى السفينة . كان سببا فى نجاتها من يد الملك الظالم ، وكان سببا فى بقائها فى أيدي أصحابها المساكين .. فالضرر الكبير الذى أحدثته بها ، كان دفعا لضرر أكبر كان ينتظر أصحابها المساكين لو بقيت سليمة .

ويرى بعضهم أن المراد بالوراء الآمام . ويرى آخرون أن المراد به الخلف . وقال الزجاج : وراء : يكون للخلف والآمام . ومعناه : ما توارى عنك واستقر . وظاهر قوله - تعالى - : أنه يأخذ كل سفينة غصبا ، يفيد أن هذا الملك كان يأخذ كل سفينة سواء أكانت صحيحة أم معيبة ، ولما كان هذا الظاهر غير مراد . وإنما المراد : يأخذ كل سفينة سليمة . بدليل : فأردت أن أعيبها ، أى : لئلا يأخذها ، ومن هنا قالوا : إن لفظ د سفينة ، هنا موصوف لصفة محذوفة . أى : يأخذ كل سفينة صحيحة .

و . غصبا ، منصوب على أنه مصدر مبين لنوع الأخذ . وإو الغصب - من باب ضرب - : أخذ الشيء ظلما وقهرا .

ثم بين - سبحانه - ما رد به الخضر على موسى في اعتراضه على الحادثة الثانية فقال - تعالى - :

« وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ، فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) » .

أى : « وأما الغلام ، الذى سبق لى أن قتلته ، واعترضت على قتلته ياموسى ، فكان أبواه مؤمنين ، ولم يكن هو كذلك فقد أعلمنى الله - تعالى - أنه طبع كافرا . » فخشينا أن يرهمهما طغيانا وكفرا ، والخشية : الخوف الذى يشوبه تعظيم ، وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه .

و ، يرهمهما ، من الإرهاق وهو أن يحمل الإنسان ما لا يطيقه .

أى : فخشينا لو بقى حيا هذا الغلام أن يوقع أبويه فى الطغيان والكفر ، لشدة محبتهم له ، وحرصهما على إرضائه .

« فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ . . » والإبدال : رفع شئ ، وإحلال آخر محله .

أى : « فأردنا ، بقتله ، أن يبدلها ربهما ، بدل هذا الغلام الكافر الطاغى ، ولدا آخر ، خيرا منه ، أى من هذا الغلام ، زكاة ، أى : طهارة وصلاحا » وأقرب رحما ، أى : وأقرب فى الرحمة بهما ، والعطف عليهما ، والطاعة لهما ،

ثم ختم - سبحانه - القصة ، ببيان ما قاله الخضر لموسى فى تأويل الحادثة الثالثة فقال - تعالى - :

« وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ، فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ، وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، وَفَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِى ، ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (١٢) » .

أى : « وأما الجدار ، الذى أنعمت نفسى فى إقامته ، ولم يعجبك هذا منى . « فكان لغلامين يتيمين ، مات أبوهما وهما صغيران ، وهذان الغلامان يسكنان فى تلك المدينة ، التى عبر عنها القرآن بالقريه سابقا فى قوله : « فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية ... » .

« قالوا : ولعل التعبير عنها بالمدينة هنا ، لإظهار نوع اعتداد بها ، باعتداد ما فيها من اليتيمين ، وما هو من أهلها وهو أبوهما الصالح ، (١) .
« وكان تحته ، أى تحت هذا الجدار « كنز لهما ، أى : مال مدفون من ذهب وفضة ... ولعل أباهما هو الذى دفنه لهما » .

« وكان أبوهما صالحا ، أى : رجلا من أصحاب الصلاح والتقوى ، فكان ذلك منه سببا فى رعاية ولديه ، وحفظ ما لهما .

« فأراد ربك ، وما لك أمرك ؛ ومدير شئونك ، والذى يجب عليك أن تستسلم وتنقاد لإرادته .

« أن يبلغا أشدهما ، أى : كمال رشدهما ، وتتمام نموهما وقوتهما :
ويستخرجا كنزهما ، من تحت هذا الجدار وهما قادران على حمايته ، ولولا أنى أتمته لانقض وخرج الكنز من تحته قبل إقذارهما على حفظه وعلى حسن التصرف فيه .

«رحمة من ربك ، أى : وما أرادته ربك - ياموسى - بهذين الغلامين ،
هو الرحمة ليس بمدما رحمة ، والحكمة التى ليس بمد حكمة .
فقلوه «رحمة ، مفعول لأجله .

ثم ينفض الخضر يده من أن يكون قد تصرف بغير أمر ربه فيقول :
«وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا ، .

أى : وما فعلت ما فعلته عن إجتهاد منى ، أو عن رأي الشخصى ، وإنما
فعلت ما فعلت بأمر ربي وما لك أمرى ، وذلك الذى ذكرته لك من
تأويل تلك الأحداث هو الذى لم تستطع عليه صبرا ، ولم تطاق السكوت
عليه ، لأنك لم يطلعك الله - تعالى - على خفايا تلك الأمور وبواطنها ...
كما أطلعنى .

وحذفت التاء من «تستطع ، تخفيفا . يقال : استطاع فلان هذا الشيء
واستطاعه بمعنى أطاقه وقدر عليه .

وبذلك انكشف المستور لموسى عليه السلام - وظهر ما كان خافيا عليه .
هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لآيات تلك القصة جملة من
الاحاديث ، منها ما رواه الشيخان ، ومنها ما رواه غيرهما ، ونكتفى هنا بذكر
حديث واحد .

قال - رحمه الله - قال البخارى : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا
عمرو بن دينار ، أخبرنى سعيد بن جبير قال . قلت لابن عباس : إن نوحا
البيكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى نبي بنى إسرائيل .

قال ابن عباس : كذب عدو الله ، حدثنا أبى بن كعب أنه سمع رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - يقول : إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل ، فمئلا
أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا . فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه . فأوحى الله
إليه : إن عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك . فقال موسى : يارب ، وكيف
لى به ؟

قال : تأخذ معك حوتا ، تجعله بمكمل ، فحينما فقدت الحوت فهو ثم ،

فأخذ حوتا ، فجعله في مكمل ، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون .
حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رموسهما فناما ، واضطرب الحوت في المكمل ،
فخرج منه فسقط في البحر ، واتخذ سبيله في البحر سربا ، وأمسك الله عن
الحوت جرية الماء ، فصار عليه مثل الطاق .

فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت .

فانطلقا بقية يومهما وليلتتهما ، فلما كان الغد قال موسى لفتاة :
« آتينا غداؤنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، ولم يجد موسى النصب حتى جاوز
المكان الذي أمره الله به . »

قال له فتاه : « رأيت إذ أرينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه
إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله في البحر عجبا » . قال : فمكان للحوت
سربا ولموسى وفتاه عجبا .

فقال موسى : « ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا » .

قال : فرجعا يقصان أثرهما ، حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى
- أى مغطى - بثوب ، - فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام
قال : أنا موسى : قال : موسى نبي إسرائيل قال : نعم ، أنبتك لتعلمني عما علمت
رشدا . قال : إنك لن تستطيع معي صبرا .

يا موسى : إني على علم من علم الله علمه ، لا أعلمه أنت ، وإنى على علم
من علم الله علمه لا أعلمه .

قال موسى : ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا . قال الخضر :
فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا .

فانطلقا بمشيان ، فمرت سفينة فكلهم أن يحملوه . فمروا بالخضر -

محمولهم بعير نول - أى بغير أجر - فلما ركبا في السفينة، لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم .

فقال له موسى : قد حملونا بغير نول ، فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها ، لتفريق أهلها ، لقد جئت شيئا إمرا .

قال له الخضر : ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا . قال : لا تأخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا .

قال : وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، كانت الأولى من موسى نسيانا ، قال : وجا - عصفور فوقع على حرف السفينة - فنقر في البحر نقرة . فقال له الخضر : ما علمى وعلمك في علم الله ، إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر .

ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمشيان على الساحل ، إذا أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه فاقتلمه بيده فقتله . فقال له موسى : « أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا . قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا .

قال : وهذه أشد من الأولى . قال : قال : إن سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبني .

« فأنطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه . قال : لو شئت لانخذت عليه أجرا . قال : هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع على صبرا ، .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : وددنا أن موسى كان قد صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما ، (١) .

وقد أخذ العلماء من هذه القصة أحكاما وآدابا من أهمها ما يأتي :

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٧٢ طبعة دار للشعب .

١ - أن الإنسان مهما أوتي من العلم ، فعليه أن يطلب المزيد ، وأن لا يعجب بعلمه ، فأنه - تعالى - يقول : ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ، وطلب من نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يتضرع إليه بطلب الزيادة من العلم فقال :
« وقل رب زدني علما » .

٢ - أن الرحلة في طلب العلم من صفات العقلاء ، فموسى - عليه السلام - وهو من أولى العزم من الرسل ، تجشم المشاق والمتاعب ، لكي يلتقي بالرجل الصالح ، لينتفع بعلمه ، وصمم على ذلك مهما كانت العقبات بدليل قوله - تعالى - حكاية عنه : « لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا » .
قال القرطبي عند تفسيره لهذه الآية : في هذا من الفقه رحلة العالم في طلب الازدياد من العلم ، والاستمانة على ذلك بالخادم والصاحب واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعدت أقطارهم . وذلك كان دأب السلف الصالح ، وبسبب ذلك وصل المرتحلون لطلب العلم إلى الحظ الراجح : وحصلوا على السعى الناجح ، فرسخت لهم في العلوم أقدام . وصح لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام .

قال البخاري : ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في طلب حديث ، (١) .

٣ - جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى الطبيعة البشرية ، كالجوع والعطش والتعب والنسيان فقد قال موسى لفتهاه : « آتنا غداهنا لقد أنسينا من سفرنا هذا نصبا » ، ورد عليه فتهاه بقوله : « أرأيت إذ أؤينا إلى الصخرة فإني نسيت الخوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره . . . » .

وفي هذا الرد - أيضا - من الأدب ما فيه ، فقد نسب سبب النسيان إلى الشيطان ، وإن كان الكل بقضاء الله - تعالى - وقدره .

٤ - أن العلم على قسمين : علم مكتسب يدركه الإنسان باجتهاده وتحصيله . .

بعد عون الله تعالى - له . وعلم لدنى يهبه الله - سبحانه - لمن يشاء من عباده .
فقد قال - تعالى - في شأن الخضر : وعلمناه من لدنا علما ، أى : علما خاصا
أطلعه الله عليه يشمل بعض الأمور الغيبية

• - أن على المتعلم أن يخفف جناحه للمعلم ، وأن يخاطبه بأرق العبارات
والألفاظ ، حتى يحصل على ما عنده من علم بسرور وارتياح .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وتأمل ما حكاه الله عن موسى في قوله للخضر :
هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً ، فقد أخرج الكلام بصورة
الملاطفة والمشاورة ، فكأنه يقول له . هل ناذن لى فى ذلك أولا ، مع إقراره
بأنه يتعام منه ، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر الذى لا يظهر المعلم
افتقاره إلى علمه . . . ، (١) .

٦ - أنه لا بأس على العالم ، إذا اعتذر للمتعلم عن تعليمه ، لأن المتعلم
لا يطيق ذلك ، لجملة بالأسباب التى حملت العالم على فعل تلك الأمور التى ظاهرها
يخالف الحق والعدل والمنطق العقلى ، وأن معرفة الأسباب تعين على الصبر . .
فقد قال الخضر لموسى : ولأنك لن تستطيع معى صبرا وكيف تصبر على
ما لم تحط به خبرا ، فقد جعل الموجب لعدم صبره عدم إحاطته خبرا بالإمر .
٧ - أن من علامات الإيمان القوى ، أن يقدم الإنسان المشيئة عند
الإقدام على الأعمال ، وأن العزم على فعل الشئ ليس بمنزلة فعله ، فقد قال
موسى للخضر : ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا ، ومع ذلك
فعند ما رأى منه أنفعالا يخالف ظاهرها الحق والصلاح ، لم يصبر
وأنه لا بأس على العالم أن يشترط على المتعلم أمورا معينة قبل أن يبدأ فى
تعليمه .

فقد قال الخضر لموسى : إن اتبعتنى فلا تسألنى عن شئ حتى أحدث
لك منه ذكرا . .

(١) تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان ج ٥ ص ٢٣ للشيخ عبد الرحمن
بن ناصر السعدي .

٨ - أنه يجوز دفع الضرر الأكبر بارتكاب الضرر الأصغر، فإن خرق السفينة فيه ضرر ولكنه أقل من أخذ الملك لها غصباً ، وإن قتل الغلام شر ، ولكنه أقل من الشر الذي سيقترن على بقائه . وهو إرهابه لأبويه ، وحماسه على الكفر . . .

كما يجوز للإنسان أن يعمل عملاً في ملك غيره بدون إذنه بشرط أن يكون هذا العمل فيه مصلحة لذلك الغير كأن يرى حريقاً في دار إنسان فيقدم على إطفائه بدون إذنه ، ويدفع ضرر الحريق بضرر أقل منه ، فقد خرق الخضر السفينة ، لكي تبقى لأصحابها المساكين .

٩ - أن التأمي في الأحكام . والتثبت من الأمور ، ومحاولة معرفة العمل والأسباب . . . كل ذلك يؤدي إلى صحة الحكم ، وإلى سلامة القول والعمل . وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث يقول : رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر على صاحبه لراى العجب .

١٠ - أن من دأب العقلاء الصالحين . استعمال الأدب مع الله - تعالى - في التعبير ، فالخضر قد أضاف خرقه السفينة إلى نفسه فقال : « فأردت أن أعيبها . . . » وأضاف الخير الذي فعله من أجل الغلامين اليتيمين إلى الله فقال : « فأراد ربك أن يبيلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، »

وشبيه بهذا ما حكاه الله - تعالى - عن صالحى الجن في قولهم : « وانا لاندري أشر أريد بمن فى الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشداً . »

١١ - قال القرطبي : قوله - تعالى - « يريد أن ينقض ، أى : قرب أن يسقط . وهذا مجاز وتوسع .

وقد فسر في الحديث بقوله « مائل ، فكان فيه دلائل على وجود المجاز فى القرآن ، وهو مذهب الجمهور .

وجميع الأفعال التى حقها أن تكون للحنى الناطق إذا أسندت إلى جماد أو بهيمة ، فإنما هى استعارة .

أى : لو كان مكانها إنسان لكان بمثابة ذلك الفعل ، وهذا فى كلام العرب وأشعارها كثير ، كقول الأعشى :

أنتهمون ولا ينهى ذرى شطط كاطمن يذهب فيه الزيت والقتل
والشطط : الجور والظلم ، يقول : لا ينهى الظالم عن ظلمه إلا الطمن
العميق الذى يغيب فيه القتل - فأضاف النهى إلى الطمن . . .

وذهب قوم إلى منع المجاز فى القرآن . . . فإن كلام الله عز وجل - وكلام
رسوله - صلى الله عليه وسلم - حملة على الحقيقة أولى بذى الفضل والدين ، لأنه
يقص الحق كما أحبر الله - تعالى - فى كتابه . . . (١) :

وقد صرح صاحب أضواء البيان أنه لا مجاز فى القرآن فقال ما ملخصه :
قوله - تعالى - : « فوجدنا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه . . . » ،

هذه الآية من أكبر الأدلة التى يستدل بها القائلون : بأن المجاز فى القرآن ،
واعين أن إرادة الجدار الانقضاء لا يمكن أن تكون حقيقة وإمامى مجاز .

وقد دلت آيات من كتاب الله على أنه لا مانع من أن تكون إرادة الجدار
حقيقة ، لأن الله - تعالى - يعلم للجادات إرادات وأفعالا وأقوالا لا يدركها
الخلق ، كما صرح - تعالى - وبأنه يعلم من ذلك ما لا يعلمه خلقه فى قوله - سبحانه -
« وإن من شئ إلا يسبح بحمده وليكن لا تفقهون تسبيحهم . . . » ،

فصرح بأننا لا نفقه تسبيحهم ونسبيحهم واقع عن إرادة لهم يعلمها
- سبحانه - ونحن لا فعلها . . .

ومن الأحاديث الدالة على ذلك ما ثبت فى صحيح مسلم أن النبى - صلى الله
عليه وسلم - قال : « إني لأعرف حجرا كان يسلم على بمكة ، . . . وما ثبت
فى صحيح البخارى من حنين الجزع الذى كان يخطب عليه - صلى الله عليه وسلم -
حزنا لفراقه .

فتسلم ذلك الحجر ، وحنين ذلك الجزع ، كلاهما بإرادة وإدراك يعلمه الله ونحن لا نعلمه ... (١) .

١٢ - أن صلاح الآباء ينفع الأبناء . بدليل قوله - تعالى - : « وكان أبوهما صالحا ... » .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته وتشمل بركة عبادته ما ينفعهم في الدنيا والآخرة ؛ بشفاعته فيهم ، ورفع درجاتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم ، كما جاء في القرآن ووردت السنة به .

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : حفظا بصلاح أبيهما
١٣ - أن على الصاحب أن لا يفارق صاحبه حتى يبين له الأسباب التي حملته على ذلك ، فأنت ترى أن الحضر قد قال لموسى : « هذا فراق يبنى وينك ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا » . (٢) أي : قبل مفارقتي لك سأخبرك عن الأسباب التي حملتني على فعل ما فعلت ، ما لم تستطع معه صبرا .
ويفهم من ذلك أن موافقة الصاحب لصاحبه - في غير معصية الله - تعالى - على رأس الأسباب التي تعين على دوام الصحبة وتقويتها ، كما أن عدم الموافقة ، وكثرة المخالفة ، تؤدي إلى المقاطعة

كما يفهم من ذلك - أيضاً - أن المناقشة والمحاورة متى كان الغرض منها الوصول إلى الحق ، وإلى المزيد من العلم ، وكانت بأسلوب مهذب ، وبنية طيبة ، لا تؤثر في دوام المحبة والصدقة ، بل تزيدهما قوة وشدة
نسأل الله - تعالى - أن يؤدبنا بأدبه ، وأن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا

ثم ساق - سبحانه - قصة ذى القرنين ، وهي القصة الرابعة والأخيرة في السورة فقد سبقتهما قصة أصحاب الكهف - وقصة صاحب الجنتين وقصة موسى والنضر .

(١) راجع أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج ٤ ص ٧٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٨٣ .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يقصى علينا بأسلوبه البليغ المؤثر خبر
ذی القرنین فبقول :

« ويسألونك عن ذی القرنین ، قل سأتلو علیکم منه ذِکراً (٨٣)
إنا مکنا له فی الأرضِ وآتیناه من کلّ شیء سبباً (٨٤) فأتبع
سبباً (٨٥) حتی إذا بلغ مغرب الشمسِ وجدها تغربُ فی عینِ حمئةٍ
ووجد عندها قوماً ، قلنا یاذا القرنینِ إنا أن تعذبَ وإما أن تتخذ
فیهم حسنةً (٨٦) قالَ أما من ظلم فسوف نعذبه ثم یردُّ إلى ربِّه
فیعذبه عذاباً نکرأ (٨٧) وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى
وسنقولُ له من أمرنا یسراً (٨٨) ثم أتبعَ سبباً (٨٩) حتی إذا بلغ
مَطْلِعَ الشمسِ وجدها تطلعُ علی قومٍ لم نجعل لهم من دونها سیئراً (٩٠)
کذلک وقد أحطنا بما لدینہ خبراً (٩١) ثم أتبعَ سبباً (٩٢) حتی
إذا بلغَ بینَ السّدينِ وجد من دُونِهما قوماً لا یkadونَ یفقہونَ قولاً (٩٣)
قالوا یاذا القرنینِ إنْ یأجوجَ وماأجوجَ مُفسِدونَ فی الأرضِ
فهلْ نجعلُ لکَ خرجاً علی أنْ تجعلَ بیننا وبینهم سدّاً (٩٤) قالَ
ما مکنی فیہ ربی خیرٌ فأعینونی بقوۃٍ أجعلُ بینکم وبینهم
ردماً (٩٥) آتونی زُبْرَ الحَديدِ حتی إذا ساویَ بینَ الصّدفینِ قالَ
انفخوا حتی إذا جعلته ناراً قالَ آتونی أفرغْ علیہ قِطْراً (٩٦)
فما استطاعوا أن یمظروہ وما استطاعوا له نقباً (٩٧) قالَ هذا رحمةٌ
من ربی فإذا جاء وعدُ ربی جعله دكاءَ وكان وعدُ ربی حقاً (٩٨) . »

وقوله - سبحانه - : « وبإسألوك عن ذى القرنين ... » ، مطوف على قصة موسى والخضر - عليهما السلام - حذف القصة على القصة .

قال البقاعى : كانت قصة موسى مع الخضر مشتملة على الرحلات من أجل العلم ، وكانت قصة ذى القرنين مشتملة على الرحلات من أجل الجهاد في سبيل الله ، ولما كان العلم أساس الجهاد تقدمت قصة موسى والخضر على قصة ذى القرنين . . . (١) .

والسائلون هم كفار قريش بتلقين من اليهود ، فقد سبق أن ذكرنا عند تفسيرنا لقصة أصحاب الكهف . أن اليهود قالوا لوفد قريش : سلوه - أى الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن ثلاث تأمركم بهن . . سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ماذا كان من أمرهم . . . وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها . . . وسلوه الروح .

وجاء التعبير بصيغة المضارع - مع أن الآيات نزلت بعد سدوا لهم - لاستحضار الصورة الماضية ، أو للدلالة على أنهم إستمروا فى الجاهم إلى أن نزلت الآيات التى ترد عليهم .

أما ذى القرنين ، فقد اختلفت فى شأنه أقوال المفسرين إختلافا كبيرا ، لعل أقربها إلى الصواب ما أشار إليه الآلوسى بقوله : وذكر الريحان البيرونى فى كتابه المسمى « بالآثار الباقية عن القرون الخالية » ، أن ذى القرنين هو أبو كريب الحميرى ، وهو الذى : إفتخر به تبع اليماني حيث قال :

قد كان ذو القرنين جدى مسلما مليكا علا فى الأرض غير مفند
بلغ المغارب والمشارق يبتغى أسباب ملك من حكيم مرشد

ثم قال أبو الريحان : ويشبه أن يكون هذا القول أقرب ، لأن ملوك اليمن كانوا يلقبون بكلمة ذى . كذى نواس ، وذى يزن . إلخ . (٢) .

(١) نظم الدرر للبقاعى - ١٢ ص ١٢٨ .

(٢) تفسير الآلوسى .

ومن المقطوع به أن ذا القرنين هذا : ليس هو الإسكندر المقدوني الملقب بذي القرنين . تلميذ أرسطو ، فإن الإسكندر هذا كان وثنيا . بخلاف ذي القرنين الذي تحدث عنه القرآن ، فإنه كان مؤمنا بالله - تعالى - ومعتقدا بصحة البعث والحساب .

والرأى الراجح أنه كان عبدا صالحا ، ولم يكن نبيا . ويرى بعضهم أنه كان بعد موسى - عليه السلام - ، ويرى آخرون غير ذلك ومن المعروف أن القرآن الكريم يهتم في قصصه ببيان العبر والعظات المستفادة من القصة ، لا ببيان الزمان أو المكان للأشخاص . وسمى بذي القرنين - على الراجح - لبلوغه في فتوحاته قرني الشمس من أقصى المشرق والمغرب .

والمعنى : ويسألك قَوْمَكَ - يا محمد - عن خبر ذي القرنين وشأنه .
« قل ، لهم - على سبيل التعليم والرد على تحديهم لك - « سأتلو عليكم منه ذكرا » .

والضمير في « منه » يعود على ذي القرنين ، و « من » ، للتبعية .
أى : قل لهم : سأتلو عليكم من خبره . وسأقص عليكم من أنبائه عن طريق هذا القرآن الذي أوحاه الله إلى ما يفيدكم ويكون فيه ذكرى وعبرة لكم إن كنتم تعقلون .

ثم بين - سبحانه - ما أعطاه الله لذي القرنين من نعم فقال : « إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا » . فأتبع سببا .

وقوله : « مكنا » من التمكين بمعنى إعطائه الوسائل التي جعلته صاحب نفوذ وسلطان في أقطار الأرض المختلفة . والمفعول محذوف ، أى : إنا مكنا له أمره من التصرف فيها كيف يشاء . بأن أعطيناه سلطانا وطيرد الدعائم ، وآتيناه من كل شيء أراده في دنياه لتقوية ملكه سببا ، أى . سبيلا وطريقا يوصله إلى مقصوده ، كآلات السير ، وكثرة الجند ، ووسائل البناء والعمران

وهذه الأسباب التي أعطاه الله لإياه ، لم يرد حديث صحيح بتفصيلها ، فعملينا أن نؤمن بأن الله - تعالى - قد أعطاه وسائل عظيمة لتدعيم ملكه ، دون أن نلتفت إلى ما ذكره هنا بعض المفسرين من إسرئيليات لا قيمة لها .

والفناء في قوله « فأتبع سببا » فصاحة . أى : فأراد أن يزيد فى تدعيم ملكه ، فملك طريقا لكي يوصله إلى المسكان الذى تغرب فيه الشمس .

« حتى إذا بلغ مغرب الشمس ، أى حتى إذا وصل إلى منتهى الأرض المعمورة فى زمنه من جهة المغرب .

« وجدها تغرب فى عين حمته ، أى : رآها فى نظره عند غروبها ، كأنها تغرب فى عين مظلمة ، وإن لم تكن هى الحقيقة كذلك .

وهذا هو المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس ماء ، فإنه يراها كأنها تشرق منه وتغرب فيه ، كما أن الذى يكون فى أرض ملساء واسعة ، يراها كأنها تطلع من الأرض وتغيب فيها .

وحمته : أى : ذات حمأة وهى الطين الأسود . يقال : حمات البئر نجما حمأ ، إذا صارت فيها الحمأة وهى الطينه السوداء .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائى : وجدها تغرب فى عين حامية أى : حارة . لاسم فاعل من حمى يحمى حميا .

« ووجد عندها قوما ، أى : ووجد عند تلك العين على ساحل البحر قوما . الظاهر أن هؤلاء القوم كانوا من أهل الفترة ، فدعاهم ذو القرنين إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، فخبره الله - تعالى - فيهم فقال : « قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما تتخذ فيهم حسنا » .

أى : قال الله - تعالى - له عن طريق الإلهام ، أو على لسان ملك أخبره بذلك : ياذا القرنين إما أن تعذب هؤلاء القوم الكافرين أو الفاسقين بالقتل أو غيره ، وإما أن تتخذ فيهم أمرا إذا حسن ، أو أمرا حسنا ، تقتضيه المصلحة والسياسة الشرعية .

ثم حكى الله - تعالى - عنه في الجواب ما يدل على - لامة تفكيره : فقال :
 . قال أما من ظلم ... ، أى : قال ذو القرنين في الرد على تخيير ربه له في
 شأن هؤلاء القوم ، يارب : أما من ظلم نفسه بالاصرار على الكفر والفسوق
 والمصيان ، فسوف نعذبه ، في هذه الدنيا بالقتل وما يشبهه . ثم برد هذا الظالم
 لنفسه إلى ربه - سبحانه - فيعذبه في الآخرة عذاباً نكراً ، أى : عذاباً
 فظيماً عظيماً منكراً وهو عذاب جهنم .

و أما من آمن وعمل صالحاً ، يقتضيه إيمانه ، فله ، في الدارين جزاء
 الحسنى ، أى : فله المثوبة الحسنى ، أو الفعلية الحسنى وهي الجنة .
 . وسنقول له ، أى لمن آمن وعمل صالحاً ، من أمرنا ، أى بما نأمره به
 قولاً ، يسراً ، لا صعوبة فيه ولا مشقة ولا عسر .

فأنت ترى أن ذا القرنين قد رد بما يدل على أنه قد امتنع في حكمه الطريق
 القويم ، والأسلوب الحكيم ، الذى يدل على قوة الإيمان ، وصدق اليقين ،
 وطهارة النفس .

لأنه بالنسبة للظالمين ، يعذب ، ويقتص ، ويرهب النفوس المنحرفة ، حتى
 تعود إلى رشادها ، وتقف عند حدودها .

وبالنسبة للمؤمنين الصالحين ، يقابل إحسانهم بإحسان وملاحمهم بصلاح
 وإستقامتهم بالتكريم والقول الطيب ، والجزاء الحسن .
 وهكذا الحاكم الصالح في كل زمان ومكان : الظالمون والمعتدون ...
 يحدون منه كل شدة ترددهم وتزجرهم ونوقفهم عند حدودهم .
 والمؤمنون والمصلحون يحدون منه كل تكريم وإحسان وإحترام
 وقول طيب .

وقوله : . ثم أتبع سبباً ، بيان لما فعله بعد أن بلغ مغرب الشمس .
 أى : وبعد أن بلغ مغرب الشمس ، وال مقصده ، كر راجعاً من جهة
 غروب الشمس إلى جهة شروقها .

حتى إذا بلغ مطلع الشمس ، أى : حتى إذا كر راجعا وبلغ منتهى الأرض المعمورة فى زمنه من جهة المشرق .

ووجدها ، أى الشمس ، تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا ، أى : لم نجعل لهم من دون الشمس ما يستترون به من البناء أو اللباس ، فهم قوم عراة يسكنون الأسراب والكهوف فى نهاية المعمورة من جهة المشرق .

وقوله : كذلك ، خبر لمبتدأ محذوف ، أى : أمر ذى القرنين كذلك من حيث إنه آتاه الله من كل شىء سببا ، فبلغ ملك مشارق الأرض ومغاربها .

وقوله : وقد أحطنا بما لديه خبرا . بيان لشمول علم الله - تعالى - بأحوال ذى القرنين الظاهرة والباطنة والأحوال غيره .

أى : كذلك كن شأن ذى القرنين . وقد أحطنا إحاطة تامة وعلمنا علما لا يعزب عنه شىء ، بما كان لدى ذى القرنين من جنود وقوة وآلات . . . وغير ذلك من أسباب الملك والسلطان .

وقوله - سبحانه - : ثم اتبع سبيها ، بيان لما فعله بعد أن بلغ مغرب الشمس ومشرقها ،

أى : ثم بعد أن بلغ مغرب الشمس ومغربها . . . سار فى طريق ثالث معترض بين المشرق والمغرب ، أخذ فيها حتى إذا بلغ ، فى مسيره ذلك بين السدين ، أى : الجبلين ، وسمى الجبل سدا ، لأنه سد فجأ من الأرض .

قالوا : والسدان هما جبلان من جهة أرمينية وأذربيجان ، وقيل هما فى نهاية أرض الترك مما يلي المشرق :

ووجد من دونهما ، أى : من دون السدير من ورائهما ، قوما ، أى : أمة من الناس لفهم لا تكاد تعرف لبعدهم عن بقية الناس ، ولذا قال - سبحانه - .

« لا يكادون يفقهون قولا ، أى : لا يكاد هؤلاء القوم يفهمون أو يقرءون ما يقوله الناس لهم ، لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم ، ولا يسرف الناس - أيضا - ما يقوله هؤلاء القوم لهم ، لشدة عجمتهم .
« قالوا ، أى : هؤلاء القوم لذى القرنين : « ياذا القرنين إن بأجوج وماجوج مفسدون فى الأرض ، .

وبأجوج وماجوج اسمان أعجميان ، قيل : مأخوذان من الأوجة وهى الاختلاط أو شدة الحر : وقيل : من الأوج وهو سرعة الجرى .
واختلاف فى نسبهم ، فقيل : هم من يافث بن نوح والترك منهم . وقيل : بأجوج من الترك ، وماجوج من الديلم .

أى : هؤلاء القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا قالوا لذى القرنين ، بعد أن أن تواسموا فيه القوة والصلاح . . ياذا القرنين إن قبيلة بأجوج وماجوج مفسدون فى الأرض بشتى أنواع الفساد والنهب والسلب .

وفى الصحيحين من حديث زبب بنت جحش - رضى الله عنها - قالت : استيقظ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول : لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر - قد اقترب - فتبح اليوم من ردم بأجوج وماجوج مثل هذه ، وحق - بين أصابعه - قلت : يا رسول الله ، أهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثرت الخطيئة .

وقوله - تعالى - « فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ، حكاية لما عرضه هؤلاء القوم على ذى القرنين من عروض تدل على نفهم فيه وحسن أدبهم معه ، حيث خاطبوه بصيغة الاستفهام الدالة على أهم يفوضون الأمر إليه .

والخرج : اسم لما يخرج به الإنسان من ماله لغيره . وقرأ حمزة والكسائي خراجا وهما بمعنى واحد ، وقيل الخرجة : الجزية . والخراجه : اسم لما يخرج به عن الأرض

أى : فهل نجعل لك مقعداً كبيراً من أموالنا على سبيل الأجر ، لكي
تقيم بيننا وبين قبيلة بأجوح وما أجوح سداً بينهم من الوصول إلينا . وبحول
بيننا وبينهم ؟

وهنا يرد عليهم ذو القرنين - كما حكى القرآن عنه بما يدل على قوه إيمانه
وحرصه على إحقاق الحق وإبطال الباطل . فيقول : قال ما مكنى فيه
ربى خير . . .

أى : قال ذو القرنين لؤلؤ القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً : إن
ما بسطه الله - تعالى - لى من الرزق والمال والقوة . . خير من خروجكم
وما لكم الذى تريدون أن نجعلوه لى فى إقامة السد بينكم وبين بأجوح
وما جرج ، فوفروا عليكم أموالكم ، وقفوا لى جانبي فاعينوني ، بسواعدكم
وبآلات البناء ، بقوة ، أى : بكل ما أنقوى به على المقصود وهو بناء السد ،
لكى أجعل بينكم ، وبين بأجوح وما جرج ردماً .
أى : حاجزاً حصيناً . وجداراً متيناً ، يحول بينكم وبينهم .

والردم : الشيء الذى يوضع بعضه فوق بعض حتى يتصل ويتلاصق .
يقال : ثوب مردم ، أى : فيه رقاع فوق رقاع . وسحاب مردم ، أى :
متكاثف بعضه فوق بعض . ويقال : ردمت الجفرة ، إذا وضعت فيها من
الحجارة والتراب وغيرهما ما يسويها بالأرض .

قال ابن عباس : الردم أشد الحجاب .

وجملة : أجعل بينكم وبينهم ردماً ، جواب الأمر فى قوله : فاعينوني
بقوة . . .

ثم شرع فى تنفيذ ما راموه منه من عون فقال لهم : آتوني زبر
الحديد . . .

والزبر - كالعرف - جمع زبره - كغرفة - وهى القطعة الكبيرة من الحديد

وأصل الزبر . الاجتماع ومنه زبرة الأسد لما اجتمع من الشعر على كاهله .
ويقال : زبرت الكتاب أى كتبته وجمعت حروفه .

أى : أحضروا لى الكثير من قطع الحديد الكبيرة ، فأحضروا له ما أراد
« حتى إذا ساءى بين الصدفين ، أى جانبي الجبلين . وسمى كل واحد من
الجانبيين صدفا . لكونه مصادفا ومقابلا ومحاذيا للآخر ، مأخوذا من قولهم
صدفت الرجل : أى : قابلته ولاقيته ، ولذا يقال للمفرد صدف حتى
يصادفه الآخر ، فهو من الأسماء المتضايقة كالشفع والزوج .

وقوله : قال انفخوا ، أى النار على هذه القطع الكبيرة من الحديد
الموضوع بين الصدفين .

وقوله : « حتى إذا جعله نارا ، أى : حتى إذا صارت قطع الحديد
الكبيرة كالنار فى إحمرارها وشدة توهجها » قال آتونى أفرغ عليه قطرا ،
أى : نحاسا أو رصاصا مذابا ، وسمى بذلك لأنه إذا أذيب صار يقطر كما
يقطر الماء .

أى : قال لهم أحضروا لى قطع الحديد الكبيرة ، فلما أحضروها له ، أخذ
يبنى شيئا فشيئا حتى ساءى بين جانبي الجبلين بقطع الحديد ، قال لهم :
أو قدوا النار وانفخوا فيها بالكيران وما يشبهها لتسخين هذه القطع من الحديد
وتليينها ، ففعلوا ما أمرهم به ، حتى صارت تلك القطع تشبه النار فى حرارتها
وهيئتها ، قال أحضروا لى نحاسا مذابا ، لىكى أفرغه على تلك القطع من
الحديد ليزداد صلابة ومتانة وقوة .

وبذلك يكون ذو القرنين قد لبى دعوة أولئك القوم فى بناء السد . وبناءه
لهم بطريقة محكمة سليمة ، إلهتدى بها العقلاء فى تقوية الحديد والمباني فى العصر
الحديث .

وكان الداعى له لهذا العمل الضخم ، الجيولة بين هؤلاء القوم ، وبين
يأجوج ومأجوج الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون

ولقد أخبر القرآن الكريم بأن ذا القرنين بهـذا العمل جعل يأجوج
ومأجوج يقفون عاجزين أمام هذا السد الضخم المحكم فقال : دفا استطاعوا
أن يظفروه ، وما استطاعوا له نقبا .

أى : دفا استطاع قوم يأجوج ومأجوج أن يرتفعوا على ظهر السد ،
أو يرقوا فوقه لملاسته وارتفاعه ، وما استطاعوا - أبصأ - أن يحدثوا فيه
نقبا أو خرقا لصلابته ومتانته وثخانتة .

ووقف ذو القرنين أمام هذا العمل العظيم ، مظهرا الشكر لله - تعالى - ،
والمجزر أمام قدرته - عز وجل - شأن الحكام الصادقين في إيمانهم ، الشاكرين
لخالقهم توفيقه لإيادهم لسكل خير ...

وقف ليقول بكل تواضع وخضوع لخالقه ... : وهذا رحمة من ربي ..
أى : هذا الذى فعلته من بناء السد وغيره ، أثر من آثار رحمة ربي التى
وسعت كل شيء .

د فإذا جاء وعد ربي ، الذى حددته لفناء هذه الدنيا ونهايتها ، أو الذى
حدده لخروجهم منه د جعله دكاء ، أى : جعل هذا السد أرضا مستوية ، وصيره
مدكوكا أى : بمساواة الأرض . ومنه قولهم : ناقة دكاء أى : لاسنام لها .

د وكان وعد ربي حقا ، أى : وكان كل ما وعد الله - تعالى - به عباده من
ثواب وعقاب وغيرهما ، وعدا حقا لا يتخلف ولا يتبدل ، كما قال - سبحانه - :
د وعد الله لا يخلف الله وعده . ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، .

وبذلك نرى فى قصة ذى القرنين ما نرى من الذروس والعبر والعظات ،
التي من أبرزها . أن التمكين فى الأرض نعمة يهبها الله لمن يشاء من عباده .
وأن السير فى الأرض لإحقاق الحق وإبطال الباطل من صفات المؤمنين
الصادقين ، وأن

والإحسان إلى المستقيمين المقسطين ، والعمل على ما يجعلهم يزدادون استقامة وفضلا ، وأن من معالم الخلق الكريم ، أن يعين الإنسان المحتاج إلى عونه ، وأن يقدم له ما يصونه عن الوقوع تحت وطأة الظالمين المفسدين ، وأن من الأفضل أن يحاسب ذلك عند الله - تعالى - . . . وأن لا يطلب من المحتاج إلى عونه أكثر من طاقته . . .

كما أن من أبرز صفات المؤمنين الصادقين : أنهم ينسبون كل فضل إلى الله - تعالى - وإلى قدرته النافذة ، وأنهم يزدادون شكرا وحمدا له - تعالى - كلما زادهم من فضله ، وما أجل وأحكم أن تختتم قصة ذى القرنين بقوله - تعالى - : « قال هذا رحمة من ربى ، فإذا جاء وعد ربى جعله ذكرا » . . .

• • •

ثم نسوق السورة الكريمة بعد قصة ذى القرنين آيات تذكر الناس بأهوال يوم القيامة ، لهمم يتدبرون ويتذكرون . . .

استمع إلى السورة الكريمة وهى تصور ذلك فتقول :

« وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ
فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠)
الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرَى وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ
صَمًّا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ
أَوْلِيَاءَ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) » .

وقوله : « وتركنا » بمعنى جعلنا وصيرنا ، والضمير المضاف فى قوله

(بعضهم) يعود إلى يأجوج ومأجوج ، والمراد (بيومئذ) : يوم تمام بناء السد الذي بناه ذو القرنين .

وقوله - سبحانه - (موج) من الموج بمعنى الاضطراب والاختلاط يقال : ما ج البحر إذا اضطرب موجه وهاج واختلط . ويقال : ما ج القوم إذا اختلط بعضهم ببعض وتزاحموا حائرين فزعين .

والمعنى وجعلنا وصيرنا بمقتضى حكمتنا وإرادتنا وقدرتنا قبائل يأجوج ومأجوج يموج بعضهم في بعض . أى : تتزاحمون ويضطربون من شدة الحيرة لأنهم بعد بناء السد ، صاروا لا يجدون مكانا ينفذون منه إلى ما يريدون التنفيذ إليه ، فهم خلفه في اضطراب وهرج .

ويجوز أن يكون المراد بيومئذ : يوم مجى الوعد بخروجهم وإفشاءهم في الأرض ، وهذا الوعد قد صرحت به الآية السابقة في قوله - تعالى - (فإذا جاء وعد ربه جعله دكاء وكان وعد ربي حقا) .

فيكون المعنى : وتركنا قبائل يأجوج ومأجوج ، يوم جاء وعد الله بجعل السد مدكوكا ومتساويا مع الأرض ، يموج بعضهم في بعض ، بعد أن خرجوا منتشرين في الأرض ، وقد تزاحموا وتكاثروا واختلط بعضهم ببعض .

قال الفخر الرازى : أعلم أن الضمير في قوله (بعضهم) يعود إلى يأجوج ومأجوج . وقوله : (يومئذ) فيه وجوه : الأول : أن يوم السد ما ج بعضهم في بعض خلفه لما منعوا من الخروج . الثانى : أنه عند الخروج يموج بعضهم في بعض . قيل : لهم حبر يخرجون من وراء السد يخرجون مزدحمين في البلاد الثالث : أن المراد من قوله (يومئذ) يوم القيامة .

وكل ذلك محتمل ، إلا أن الأقرب أن المراد به : الوقت الذى جعل الله فيه السد دكاء فعنده ما ج بعضهم ونفخ في الصور ، وصار ذلك من

آيات القيامة ، (١) .

وقال القرطبي : قوله - تعالى - : « وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ،
الضمير في « تركنا » ، الله - تعالى - أي : « وتركنا الجن والإنس يوم القيامة
يموج بعضهم في بعض » .

وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج ، يومئذ ، أي : يوم كمال السد يموج
بعضهم في بعض . وإستعارة الموح لهم عبارة عن الحيرة وتردد بعضهم
في بعض ...

وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج يوم لإفتتاح السد يموجون في الدنيا
مختلفين لكثرتهم . فهذه أقوال ثلاثة : أظهرها أوسطها وأبعدا آخرها .
وحسن الأول ، لأنه تقدم ذكر القيامة في تأويل قوله - تعالى - : « فإذا جاء
وعد ربى » ، (٢) .

وقوله - سبحانه - : « ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا » ، بيان للإسلامة من
علامات قيام الساعة .

والنفخ لغة : إخراج النفس من الفم لإحداث صوت معين . والصور :
القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل - عليه السلام - نفخه الصعق والموت ، ونفخة
البعث والنشور كما قال - تعالى - : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات
ومن في الأرض لإلا من شاء الله » ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، (٣) .
والمعنى : وتركنا يأجوج ومأجوج يموج بعضهم في بعض . وأمرنا
إسرافيل بالنفخ في الصور ، فجمعناهم وجمع الخلائق جمعا تاما ، دون أن نترك
أحدا من الخلائق بدون إعادة إلى الحياة ، بل الكل مجموعون ليوم عظيم هو
يوم البعث والحساب .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٢١ ص ١٧٢ .

(٢) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٦٥ .

(٣) سورة الزمر الآية ٦٨ .

والمراد بالنفخ هنا : النفخة الثانية التي يقوم الناس بعدها من قبورهم للحساب ، كما أشارت إلى ذلك آية سورة الزمر السابقة .

وفي التعبير بقوله : « فجمعناهم جمعا » . إشعار بأن هذا الجمع تام كامل ، لأن كلمة « جمعا » مؤكدة بلحظة جمعناهم . أى : جمعناهم جمعا تاما كاملا لا يشذ عنه أحد ، ولا يفلت منه مخلوق ، كما قال - سبحانه - : « قل إن الأولين والآخرين لجموعون . إلى ميقات يوم معلوم » .

هذا ، وهنا مسألة نسكلم عنها العلماء ، وهى وقت خروج يأجوج ومأجوج . ففهم من يرى أنه لا مانع من أن يكونوا قد خرجوا ، بدليل ما جاء فى الحديث الصحيح من أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال : ويل للعرب من شر قد اقترب . فتح اليوم من سد يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلق بين أصابعه .

ولأن الآيات الكريمة تقول : فإذا جاء وعد ربى جملة ذكاء ... ، ووعد الله لا مانع من أن يكون قد أتى .

قال الشيخ القاسمى : والغالب أن المراد بخروجهم هذا خروج المغول التتار . وهم من نسل يأجوج ومأجوج - وهو الغزو الذى حصل منهم للأمم فى القرن السابع الهجرى . وناهيك بما فعلوه إذ ذاك فى الأرض من فساد ... (١) .

وقال الشيخ المراغى عند تفسير قوله - تعالى - : « وكان وعد ربى حقا » ، وقد جاء وعده - تعالى - بخروج جنكيز خان وسلالة فعائوا فى الأرض فسادا ... وأزالوا معالم الخلافة من بغداد ... (٢) .

وقال صاحب الظلال : « وبعد ، فن يأجوج ومأجوج ؟ وأين هم الآن ؟ وماذا كان من أمرهم وماذا سيكون ؟ »

(١) تفسير القاسمى ج ١١ ص ١٦١٤ .

(٢) تفسير المراغى ج ١٦ ص ٢٠ .

كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها على وجه التحقيق ، فمنحن لا نعرف عنهم إلا ما ورد في القرآن ، وفي بعض الأثر الصحيح .

والقرآن يذكر في هذا الموضع ما حكاه من قول ذى القرنين : « فإذا جاء وعد ربى جعله دكاً ، وكان وعد ربى حقاً » .

وهذا النص لا يحدد زماناً ووعد الله بمعنى وعده بذلك السد ، ربما يكون قد جاء منذ أن هجم التتار وانشأوا في الأرض ، ودمروا الممالك تدميراً .

وفي موضع آخر من سورة الأنبياء : « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق ... » .

وهذا النص - أيضاً - لا يحدد زماناً معيناً لخروجهم ، فاقتراب الوعد الحق ، بمعنى اقتراب الساعة قد وقع منذ زمن الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقد جاء في القرآن : « اقتربت الساعة وانشق القمر » ، والزمان في الحساب الإلهي غيره في حساب البشر ، فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين أو القرون . وإذا فسر الجائز أن يكون السد قد فتح ما بين : « اقتربت الساعة » ، ويومنا هذا . وتكون غارات المغول والتتار التي اجتاحت الشرق ، هي انسياح يأجوج ومأجوج ... وكل ما نقوله ترجيح لا يقين (١) .

هذه بعض حجج القائلين بأنه لا مانع من أن يكون يأجوج ومأجوج قد خرجوا ...

وهناك فريق آخر من العلماء ، يرون أن يأجوج ومأجوج لم يخرجوا بعد ، وأن خروجهم إنما يكون قرب قيام الساعة .

ومن العلماء الذين أيدوا ذلك صاحب أضواء البيان ، فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه :

(١) في ظلال القرطبي ج ١٦ ص ٢٢٩٣ .

أعلم أن هذه الآية : « فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء » وآية الأنبياء : « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ... » قد دلتا في الجملة على أن السد الذي بناه ذو القرنين ، دون يأجوج ومأجوج ، إنما يجعله الله دكاء عند مجيء الوقت الموعود بذلك فيه . وقد دلتا على أنه بقرب يوم القيامة ... لأن المراد بيومئذ في قوله « وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض » أنه يوم مجيء وعد ربي بخروجهم وإنتشارهم في الأرض .

وآية الأنبياء تدل في الجملة على ما ذكرنا هنا . وذلك يدل على بطلان قول من قال : إنهم « روسيا » وأن السد فتح من زمن طويل .
والإقتراب الذي جاء في قوله - تعالى - « إقتربت الساعة . » وفي الحديث « ويل للعرب من شر قد إقترب . . . » لا يستلزم إقترابه من ذلك السد ، بل يصح إقترابه مع مهلة .

وهذه الآيات لا يتم الإستدلال بها على أن يأجوج ومأجوج لم يخرجوا بعد - إلا بضميمة الأحاديث النبوية لها .

ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه في ذلك ، وفيه : خروج الدجال وبعث عيسى ، وقتله الدجال ... ثم يبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون .

فيمحاز عيسى ومن معه من المؤمنين إلى الطور ... ثم يرسل الله على يأجوج ومأجوج الغف في قاهم فيموتوا

وهذا الحديث الصحيح قد رأيت فيه تصريح النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن الله يوحى إلى عيسى ابن مريم بخروج يأجوج ومأجوج بعد قتله الدجال فن يدعى أنهم « روسيا » وأن السد قد إندك منذ زمان ، فهو مخالف لما أخبر به النبي - صلى الله عليه وسلم - بخالفة صريحة لا وجه لها . ولا شك أن كل خبر يخالف الصادق المصدوق - صلى الله عليه وسلم - فهو باطل ، لأن نقبض الخبر الصادق . كاذب ضار .

ولم يثبت في كتاب الله ولا في سنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - شيء يعارض هذا الحديث الذي رأيت صحة سنده ، ووضوح دلالاته على المقصود ... ، (١) .

والذي يبدو لنا أن ما ذهب إليه صاحب أضواء البيان ، أقرب إلى الحق والصواب للأسباب التي ذكرها ، ولقربنة تذييل الآيات التي تحدثت عن يأجوج ومأجوج عن أهوال يوم القيامة .

ففي سورة الكهف يقول الله - تعالى - في أعقاب الحديث عنهم ، وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ، ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا .

وفي سورة الأنبياء يقول الله - تعالى - : : حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون وإقرب الوعد الحق

وفضلا عن كل ذلك فإن الحديث الذي رواه الإمام مسلم عنهم ، صريح في أن خروجهم سيكون من علامات الساعة ، والله - تعالى - أعلم .

ثم بين - سبحانه - ما أعدّه للكافرين من عذاب يوم القيامة فقال : : وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا . الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا .

وقوله : : وعرضنا ... أي : أظهرنا وأبرزنا يقال : عرض القائد جنده إذا أظهرهم ليشاهدكم الناس .

أي : جمعنا الخلائق يوم البعث والشور جمعا تاما كاملا ، وأبرزنا وأظهرنا جهنم في هذا اليوم للكافرين لإبرازها تلافيا ، حيث يرونها ويشاهدونها بدون لبس أو خفاء ، فيصيبهم ما يصيبهم من رعب وفزع عند مشاهدتها .

(١) راجع تفسير أضواء البيان ج ٤ ص ١٨١ وما بعدها لشيخ محمد الأمين الشنقيطي .

وتخصيص العرض بهم ، مع أن غيرهم - أيضا - يراها . لأنها ما عرضت إلا من أجلهم ، ومن أجل أمثالهم ممن فسقوا عن أمر ربهم .

ويرى بعضهم أن اللام فى « لكافرين » بمعنى على ، لأن العرض يتعدى بها قال - تعالى - : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار . . . » وقال - سبحانه - : « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا . . . »

ثم وصفهم - سبحانه - بما يدل على إستحقاقهم دخول النار فقال : الذين كانت أعينهم فى غطاء . عن ذكرى . ،

أى : أبرز جهنم فى هذا اليوم العصيب للكافرين الذين كانت أعينهم فى الدنيا فى « غطاء » ، كسيف وغشاوة غليظة ، « عن ذكرى » ، أى : عن الانتفاع بالآيات التى تذكرهم بالحق ، وتهدىهم إلى الرشاد ، بسبب استحواذ الشيطان عليهم .

وفى التعبير بقوله : « غطاء » ، إشعار بأن الحائل والسمائل الذى حجب أعينهم عن الابصار ، كان حائلا شديدا ، إذ الغطاء هو الذى يغطى الشيء ويستتره من جميع جوانبه .

والمراد بالذكر : القرآن الكريم ، أو ما يشمله ويشمل كل ما فى الكون من آيات يؤدى للتفكر فيها إلى الايمان بالله - تعالى - .

وقوله : « وكانوا لا يستطيعون سمعا » ، صفة أخرى من صفاتهم الذميمة . أى : وكانوا فى الدنيا - أيضا - لا يستطيعون سمعا للحق أو الهدى ، بسبب إصرارهم على الباطل ، وإيغالهم فى الضلال والعناد ، بخلاف الأصم فإنه قد يستطيع السماع إذا صيغ به .

قال الألوسى : فالجملية الكريمة نفي اسماعهم على أتم وجه ، ولذا عدل عن : وكانوا صما مع أنه أخصر ، لأن المراد أنهم مع ذلك كفاقدى السمع الكلية وهو مبالغة فى تصوير إصرارهم عن سماع ما رشدهم إلى ما ينفهم بعد تصوير

تعاميهم عن الآيات المشاهدة بالابصار ... ، (١) .

ثم يعقب - سبحانه - على هذا الوعيد الشديد للكافرين ، بالتهكم اللاذع لهم فيقول : « أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ... »

فالإستفهام : الإنكار والتوبيخ . والحسبان : بمعنى الظن .

والمراد بعبادي هنا : الملائكة وعيصى وعزير ومن يشبههم من عباد الله الصالحين ، إذ مثل هذه الإضافة تكون غالبا للتشريف والتكريم .

وفي الآية الكريمة حذف دل عليه المقام .

والتقدير : أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي الصالحين آلهة يستنصرون بهم من دوني ، أو يعبدونهم من دوني ، ثم لا أعذبهم - أى هؤلاء الكافرين بى - على هذا الانحاذ الشديد الشناعة ؟

إن هؤلاء الذين يحسبون ذلك ، قد ضلوا ضلالا بعيدا ، فإني لا بد أن أعذبهم على كفرهم وشركهم .

أو التقدير : أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ، لكي يشفعوا لهم يوم القيامة ؟ كلا إن يشفعوا لهم بل سيقتلون منهم ، كما قال - سبحانه - « كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا » .

ثم بين - سبحانه - ضلال هذا الحسبان الباطل فقال : « إنا أعطانا جهنم للكافرين نزلا » .

والنزل : ما يقدم للضيف عند نزوله ، والقادم عند قدومه ، على سبيل التكريم والترحيب .

أى : إنا أعطانا جهنم لهؤلاء الكافرين بى ، المتخذين عبادي من دوني أولياء ، لتكون معدة لهم عند قدومهم تكريما لهم .

فالجلمة الكريمة مسوقة على سبيل التهكم بهم ، والتقرب لهم ، لأن جهنم ليست نزل إكرام للقادم عليها ، بل هي عذاب مهين له .

وشبيه بهذه الجملة قوله - تعالى - : « فبشرهم بعذاب أليم ، وقوله : « وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه » .

ويجوز أن يكون النزل بمعنى المنزل ، أى : إنا هيئنا جهنم للكافرين لتكون مكانا وحيدا لنزولهم فيها ، إذ ليس لهم منزل سواها .

ثم بأمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - فى أواخر السورة الكريمة ، بأن يبين للناس من هم الأخسرون أعمالا ، ومن هم الأسوأ عاقبة فيقول :

« قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ، فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا ، وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوءًا (١٠٦) » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المكافرين الذين أعجبهم أعمالهم وتصرفاتهم الباطلة .

قل لهم : ألا تريدون أن أخبركم خبرا هاما ، كله الصدق والحق ، وأعرفكم عن طريقه من هم الأخسرون أعمالا فى الدنيا والآخرة ؟

وجاء هذا الإخبار فى صورة الاستفهام لزيادة التهكم بهم ، وللفت أنظارهم إلى ما سيلقى عليهم .

والأخسرون : جمع أخسر ، صيغة تفضيل من الخسران ، وأصله نقص مال التاجر .

والمراد به هنا : أن أعمالهم ضائعة بسبب إصرارهم على كفرهم .

وجمع الأعمال ، للإشعار بتنوعها ، وشمول الخسران لجميع أنواعها .
وقوله - سبحانه - : الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، .

جواب عن السؤال الذي اشتملت عليه الآية السابقة وهي : د قل هل أنبئكم

فكانه قيل : نيتنا عن هؤلاء الأَخسرين أعمالا ؟

فكان الجواب : هم الذين ضل سعيهم ، أى بطل وضاع بالسكينة سعيهم وعملوا في هذه الحياة الدنيا بسبب إصرارهم على كفرهم وشركهم ، فالجملة الكريمة خبر لمبتدأ محذوف .

وقوله : وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، أى : والحال أنهم يظنون أنهم يقدمون الأعمال الحسنة التى تنفعهم .

فالجملة الكريمة جال من فاعل د ضل ، أى : ضل وبطل سعيهم ، والحال أنهم يظنون العكس . كما قال - تعالى - : د أفن زين له سوء عمله فرآه حسنا

وهذا هو الجهل المركب بعينه ، لأن الذى يعمل سوء . ويعلم أنه سوء قد ترجى استقامته . أما الذى يعمل سوء . ويظنه عملا حسنا فهذا هو الضلال المبين .

والتحقيق أن المراد بالأخسرين أعمالا هنا : ما يشمل المشركين واليهود والنصارى ، وغيرهم ممن يعتقدون أن كفرهم وضلالهم صواب وحق .

وقوله - سبحانه - : د أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه فخبطت أعمالهم

كلام مستأنف لزيادة التعريف هؤلاء الأَخسرين أعمالا ، وليبيان سوء مصيرهم .

أى : أولئك الذين كفروا بآيات ربهم الدالة على وحدانيته وقدرته وكفروا بالبعث والحشر والحساب وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب، فكانت نتيجة هذا الكفر أن دحبطت أعمالهم ، أى : فسدت وبطلت .

وأصل الحبوط : افتاخ بطن الدابة بسبب امتلائها بالغذاء الفاسد الذى يؤدى إلى هلاكها .

والتعبير بالحبوط هنا فى أعلى درجات البلاغة، لأن هؤلاء الكافرين ملأوا صحائف أعمالهم بالأقوال والأفعال النبيجة التى ظنوها حسنة، فترتب على ذلك هلاكهم وسوء مصيرهم .

وقوله : د فلا تقيم لهم يوم القيامة وزنا ، تصريح بهوانهم والاستخفاف بهم ، واحتقار شأنهم .

أى : فلا نلتفت إليهم يوم القيامة، ولا نعبأ بهم احتقاراً لهم، بل نزيد بهم ولا نقيم لهم ولا لأعمالهم وزناً ، لأنهم لا توجد لهم أعمال صالحة توضع فى ميزانهم ، كما قال تعالى - : د وقد منّا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ،

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال : اقرؤا إن شئتم قوله تعالى - : د ، فلا تقيم لهم يوم القيامة وزناً .

ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة ببيان سوء ما لهم فقال : (ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا ، واتخذوا آياتى ورسلى هزوا) .

فاسم الإشارة (ذلك) مشاربه إلى عقابهم السابق المتمثل فى حبوط أعمالهم واحتقار شأنهم . وهو خبر لمبتدأ محذوف . أى : لمرم وشأنهم ذلك الذى بيناه سابقاً .

وقوله : (جزاؤهم جهنم) جملة مفسرة لاسم الإشارة لا محل لها من الإعراب أو هو جملة مستقلة بأسماء مكوّنة من مبتدأ وخبر .

وقوله . (بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا) بيان الأسباب التي جعلتهم وقودا للجهنم .

أى : أن مصيرهم إلى جهنم بسبب كفرهم بكل ما يجب الإيمان به ، وبسبب اتخاذهم آيات الله الدالة على وحدانيته ، وبسبب اتخاذهم رسله الذين أرسلهم لهذا ينهم ، محل استهزاء وسخرية .

فهم لم يكتفوا بالكفر بل أضافوا إلى ذلك السخرية بآيات الله - تعالى - والاستهزاء بالرسول الكرام - عليهما الصلاة والسلام - .

ثم أتبع - سبحانه - هذا الوعيد الشديد للكافرين ، بالودد الحسن للؤمنين فقال - تعالى - :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) » .

وجنات الفردوس : هى أفضل الجنات وأعلاها . ولفظ الفردوس : لفظ عربى ويجمع على فراديس ، ومنه قولهم صدر مفردس ، أى : واسع . قال الآلوسى ما ملخصه : عر مجاهد أن الفردوس هو البستان الرومية ، وعن عكرمة أن الفردوس هو الجنة بالحبيشية . .

ونص الفراء على أن هذا اللفظ عربى ومعناه البستان الذى فيه كرم . . . وقال المبرد : هى - أى كلمة الفردوس - فيما سمعت من العرب : الشجر الملتف والأغاب عليه العنب .

وأخرج الشيخان عن أنى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : إذا سألتكم الله - تعالى - فاسألوه الفردوس ، فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن . ومنه تفجر أنهار الجنة . . . (١) .

والمعنى : إن الذين آمنوا بالله - تعالى - وبكل ما يجب الإيمان به ، وعملوا
الأعمال الصالحات بإخلاص وإتباع لما جاء به الصادق المصدوق - صلى الله
عليه وسلم - ، كانت لهم عند الله - تعالى - جنات الفردوس ، التي هي أفضل
الجنات وأرفعها درجة ، نزلا ، أي : هدية تقدم لهم منه يوم القيامة ، ومكانا
ينزلون به تكريما وتشريفا لهم .

« خالدين فيها ، خلودا أبديا ، حالة كونهم » لا يبغون عنها حولا ، أي :
لا يطلبون تحولا أو إنتقالا منها إلى مكان آخر ، لكونها أطيب المنازل
وأعلاها .

وفي قوله - تعالى - : « لا يبغون عنها حولا » لفظة دقيقة عميقة للإجابة
على ما يعتري النفس البشرية من حب الانتقال والتحول من مكان إلى مكان ،
ومن حال إلى حال ...

فكأنه - سبحانه - يقول : إن ما حصلت عليه النفوس في الدنيا من حب
للتحول والانتقل ...

قد زال وانتهى بحلولها في الآخرة في الجنة ، فالنفس الإنسانية عندما
تستقر في الجنة - ولا سيما جنة الفردوس - لا تريد تحولا أو إنتقالا عنها ،
لأنها المكان الذي لا تشاق النفوس إلى سواه ، لأنها تجد فيه ما تشتهي
وما ينبت فيه نساء الله - تعالى - أن يرزقنا جميعا جنات الفردوس .

وكما افتتح - سبحانه - السورة الكريمة بالثناء على ذاته ، ختمها - أيضا -
بالثناء والحمد ، فقد أثبت - عز وجل - أن علمه شامل لكل شيء ، وأن قدرته
نافذة على كل شيء ، وأنه - تعالى - هم المستحق للعبادة والطاعة ، فقال :

« قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ
كَلِمَاتُ رَبِّي ، وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مِدَادًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ

يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ ، فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ
عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١) .

والمراد بالبحر : برسه ، والمداد في الأصل : اسم لكل ما يمد به الشيء .
واختص في العرف لما يمد به الدواة من الحبر .

والمراد بكلمات ربي : علمه وحكمته وكلهاته التي يصرف بها هذا الكون .
وقوله : (لنفد البحر) : أى لفنى وفرغ وانتهى . يقال : نفد الشيء .
ينفد - نفاداً ، إذا فنى وذهب ، ومنه قولهم : أنفد فلان الشيء واستنفده ؛
أى : أفناه .

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس : لو كان ماء البحر مداداً
للأقلام التي تكتب بها كلمات ربي ومعلوماته وأحكامه ... لنفد ماء البحر ولم
يق منه شيء - مع كثرة وغزارته - قبل أن تنفد كلمات ربي ، وذلك لأن
ماء البحر ينقصد وينتهى . أما كلمات الله - تعالى - فلا تنقص ولا تنتهى .

وقوله - سبحانه - : (ولو جئنا بمثله مدداً) زيادة في المبالغة وفي التأكيد
لما قبله من شمول علم الله - تعالى - لكل شيء ، وعدم تنهايه .

أى : وبعد نفاد ماء البحر السابق ، لو جئنا بماء بحر آخر مثله في الغزارة
والغزارة ، وكتبنا به كلمات الله - تعالى - لنفد - أيضاً - ماء البحر الثانى دون
أن تنفد كلمات ربي .

فالآية الكريمة تصور شمول علم الله - تعالى - لكل شيء ، وعدم تنهاى
كلماته ، تصويراً بديعاً ، يقرب إلى العقل البشرى بصورة محسوسة كمال علم الله
- تعالى - وعدم تنهايه ...

قال الألوسى : وقوله : (ولو جئنا بمثله مدداً) : هذا كلام من جهته
- تعالى شأنه - غير داخل في الكلام الملقن ، جىء به لتحقيق مضمونه ،
وتصديق مدلوله على أنم وجهه . والواو لعطف الجملة على نظيرتها المستأنفة
المقابلة لها المحذوفة لدلالة ما ذكر عليها دلالة واضحة :

أى : لنفد البحر قبل أن تنفذ كلماته - تعالى - لو لم نجىء بمثله مدداً ، ولو جئنا بمثله مدداً - لنفد أيضاً - (١) .

وقال بعض العلماء : وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان ، لأن هذه الأشياء مخلوقة ، وجميع المخلوقات منقضية منتهية ، وأما كلام الله - تعالى - فهو من جملة صفاته ، وصفاته غير مخلوقة ولا لها حد ولا منتهى ، فأى سعة وعظمة تصورها القلوب ، فالله - تعالى - فوق ذلك ، وهكذا سائر صفات الله - سبحانه - كعلمه وحكمته وقدرته ورحمته (٢) .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : (ولو أن ما فى البحر من شجرة أقلام ، والبحر منه من بعده سبعة أبحر ، ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم) (٣) ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بأمر آخر منه - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد) . أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس ، مبيناً لهم حقيقة أمرك ، بعد أن بينت لهم عدم تنهاى كلمات ربك .

قل لهم : إنما أنا بشر مثلكم ، أوجدنى الله - تعالى - بقدرته من أب وأم كما أوجدكم . وينتهى نسي ونسبكم إلى آدم الذى خلقه الله - تعالى - من تراب . ولكن الله - عز وجل - اختصنى بوحيه وبرسالته - وهو أعلم حيث يجعل رسالته - وأمرنى أن أبلغكم أن إلهكم وخالقكم ورازقكم ومميتكم ، هو إله واحد لا شريك له لا فى ذاته ، ولا فى أسمائه ، ولا فى صفاته . فعليكم أن تخلصوا له العبادة والطاعة ، وأن تستجبوا لما أمركم به ، ولما نهاكم عنه ، فإنى مبلغ عنه ما كلفنى به .

(١) تفسير الألوسى ١٦ ص ٥٢

(٢) تفسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المتان . ج ٥ ص ٣٤ للشيخ عبد الرحمن

ابن ناصر السفدى طبعة مؤسسة مكة للطباعة والإعلام

فآية الكريمة وإن كانت تثبت للرسول - صلى الله عليه وسلم - صفة البشرية وتنفي عنه أن يكون ملكاً أو غير بشر . . إلا أنها تثبت له - أيضاً - أن الله - تعالى - قد فضله على غيره من البشر بالوحي إليه ، وبمكليفه بتبليغ ما أمره الله - تعالى - بتبليغه للعالمين . كما قال - سبحانه - (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وكما قال - عز وجل - : (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم إني ملك ، إن أتبع إلا ما يوحى إلي .) (١) .
ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتلك الجملة الجامعة لكل خير فقال :
دفن كان يرجو لقاء ربه ، فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ، .
أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس : إنما أنا واحد منكم في البشرية إلا أن الله - تعالى - قد خصني واصطفاني عليكم برسالاته ووحيه ، وأمرني أن أبلغكم أن إلهكم إله واحد . فمن كان منكم يرجو لقاء الله - تعالى - ويأمل في ثوابه ورؤية وجهه الكريم ، والظفر بحبته ورضاه ، فليعمل عملاً صالحاً ، بأن يكون هذا العمل خالصاً لوجه الله - تعالى - ومطابقاً لما جئت به من عنده - عز وجل - ولا يشرك بعبادة ربه أحداً من خلقه ، سواء أكان هذا المخلوق نبياً أم ملكاً أم غير ذلك من خلقه - تعالى - .

وقد حمل بعض العلماء الشرك هنا على الرياء في العمل ، فيكون المعنى :
دفن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يرائي الناس في عمله ، لأن العمل الذي يصاحبه الرياء هو نوع من أنواع الشرك بالله تعالى . .

والذي يبدو لنا أن حمل الشرك هنا على ظاهره أولى ، بحيث يشمل الإشراف الجلي لعبادة غير الله - تعالى - والإشراف الخفي كالرياء وما يشبهه .
أى : ولا يعبد ربه رياء وسمعة ، ولا يصرف شيئاً من حقوق خالقه لأحد من خلقه ، لأنه - سبحانه - يقول : (إن الله لا يغفر أن يشرك

و يغتر مادون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً (١) .

وقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث عند تفسيره لقوله - تعالى -
 « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » .

ومن هذه الأحاديث ما رواه ابن أبي حاتم ، من حديث معمر ، عن
 عبد الكريم الجزري ، عن طاووس قال : قال رجل يا رسول الله ، إني أوقف
 المواقف أريد وجه الله ، وأحب أن يرى موطني ، فلم يرد عليه رسول الله
 - صلى الله عليه وسلم - شيئاً حتى نزلت هذه الآية : « فمن كان يرجو لقاء ربه
 فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » ، (٢) .

أما بعد : فهذه سورة الكهف ، وهذا تفسير محرر لها ، نسأل الله - تعالى -
 أن ينفعنا بالقرآن الكريم ، وأن يجعله ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا . وشفيعنا
 يوم نلقاه . يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ، .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

المدينة المنورة : مساء الخميس ١٨ من رجب سنة ١٤٠٤ هـ

١٩ من إبريل سنة ١٩٨٤ م

د / محمد سيد طنطاوي

مفتي جمهورية مصر العربية

فهرس إجمالى لتفسير « سورة الكهف »

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	المقدمة	٣
١	الحمد لله الذى أنزل ...	١١
٩	أم حسبت أن أصحاب ...	٢٢
١٣	نحن نقص عليك نبأهم ...	٣٠
١٧	وترى الشمس إذا طلعت ...	٣٦
١٩	وكذلك بمقام لينساءلوا ...	٤٢
٢١	وكذلك أعثرنا عليهم ...	٤٦
٢٢	سيقولون ثلاثة رابعهم ...	٤٩
٢٣	ولا تقولن لشيء إني فاعل ...	٥٢
٢٥	ولبشرا في كنههم ثلثائة سنين ...	٥٦
٢٧	واتل ما أوحى إليك ...	٦١
٣٢	واضرب لهم مثلا رجلين ...	٧١
٢٧	قال له صاحبه وهو يحاوره ...	٧٦
٤٤	واحبط شجرة فأصبح ...	٨٠
٤٥	واضرب لهم مثلا الحياة ...	٨٥
٤٧	ويوم نسير الجبال وترى ...	٨٩
٥٠	وإذا قلنا لللائكة اسجدوا ...	٩٤
٥٤	ولقد صرفنا في هذا القرآن ...	١٠٢
٦٠	وبذلك قال موسى لفتهاه ...	١١١
٦٦	قال له موسى هل أتبعك ...	١١٩
٧١	فانطلقا حتى إذا ركبا ...	١٢١
٧٢	فانطلقا حتى إذا لقيا ...	١٢٣
٧٧	فانطلقا حتى إذا أتيا أهل ...	١٢٥
٧٩	أما السيفية فكانت السالكين ...	١٢٧
٨٠		١٢٨

رقم الآية	الآية المفصلة	رقم الصفحة
٨٢	وأما الجدار فكان لفلانيين . . .	١٢٩
٨٣	ويسألونك عن ذى القرنين . . .	١٣٨
٩٩	وتركنا بينهم يَوْمَئِذٍ . . .	١٤٨
١٠٣	قل هل ننبئكم بالآخرين . . .	١٥٧
١٠٧	إن الذين آمنوا وعملوا . . .	١٦٠
١٠٩	قل لو كان البحر مدادا . . .	١٦١
١١٠	قل إنما أنا بشر مثلكم . . .	١٦٢